جامعة الأزهر
كلية الدراسات الإسلامية والعربية
للبنين بالديدامون – شرقية

الفضاء في رِحلة "جمال الدين القاسمي (ت ١٣٣٢هـ) إلى "بيت المقدس" مقاربة سيميائيَّة نصِّية

إعداد

الدكتور: عمر محمد إبراهيم محمد

الأستاذ المساعد بقسم الأدب والنقد بكلية الدراسات الإسلامية والعربية للبنين بالديدامون – شرقية

E-mail: OmarMohamed٠٤.el@azhar.edu.eg

العـــدد الحادي عشر

١٤٤٦هـ- ٢٠٢٤م

الفضاء في رِحلةِ "جَمال الدِّين القاسِمي (ت ١٣٣٢هـ) إلى "بيتِ المَقْدِس" مقاربة سيميائيَّة نصِّية

عمر محمد إبراهيم محمد.

قسم الأدب والنقد- كلية الدراسات الإسلامية والعربية للبنين بالشرقية ، جامعة الأزهر

جمهورية مصر العربية.

البريد الإلكتروني: E- mail: OmarMohamed٥٤.el@azhar.edu.eg

الملخص

تعد الرحلات المقْدسية من أبرز الرحلات التي عُني بها الرحالة المسلمون؛ لما تمثله من قيم رُوحية ودينية وحضارية...، وكانت مدينة "القدس"- حرسها الله- مقصداً لكثير من الرحالة؛ فهي مهبط الديانات، وأرض الأنبياء، ومَسْرى النبي الكريم ﷺ.

ولمّا كان أدب الرحلات من الأنواع الأدبية التي لم تأخذ- في رأيي- حقَّها- المناسب- في البحث العلمي والدرس النقدي، فقد كانت منّي هذه المحاولة المتواضعة؛ للفت الأنظار إلى هذا الفن التراثي العريق، وخدمة -كذلك- لهذه الرحلة وصاحِبها.

ويهدف هذا البحث إلى مقارَبة رحلة علّامة الشّام "جمال الدين القاسمي"(ت١٣٣٢هـ- ١٩١٤م) إلى بيت المقدس، والتي كانت عام١٣٢١هـ- ١٩٠٣م.

وموضوع البحث الرئيس: تناول فضاءات هذه الرحلة، وأهمها:(الفضاء المكاني والفضاء الزماني والفضاء الدّلالي والفضاء النصِّي...)

وقد أفدتُ من بعض مقولات المنهج السيميائي والمنهج النصِّي؛ بغية الكشف عن بعض جماليات هذا النص الإبداعي الذي وثَّق هذه الرِّحلة المباركَة .

وقد حاول هذا البحث الإجابة عن بعض التساؤلات، منها: ما أنواع الفضاءات التي ارتكزتْ عليها هذه الرحلة، وما دلالاتها سيميائيا، وما تأثير هذه الفضاءات في الإبداع والتلقي.

وخلُص البحث إلى أن هذا النص ينتمي إلى الأدب الرّحْلي، وكانت فضاءاته-التي احتوى عليها- لها أثرٌ في الدِّلالة وبنْية النصِّ العميقة، فضلًا عن قراءتها وتلقِّيها، كما عبَّرتْ عن رؤية الكاتب، ومدى تعلّقه بهذه الأماكن المُقدَّسة .

الكلمات المفتاحية: (الفضاء – أدب الرحلة – جمال الدِّين القاسمي – السيمائيّة-النصّية)

Space in the Journey of "Jamal al-Din al-Qasimi (d. ١٣٣٢ AH) to "Jerusalem" A textual semiotic approach.

Omar Muhammad Ibrahim Muhammad.
Department of Literature and Criticism- Faculty of Islamic and Arabic Studies for Boys in Sharkia- Al-Azhar University- Arab Republic of Egypt.
E-mail: OmarMohamed٥٤.el@azhar.edu.eg

Abstract

The Jerusalem pilgrimages are among the most prominent journeys that Muslim travelers have focused on due to their spiritual and religious values. The city of "Jerusalem"—may God protect it—has been a destination for many travelers; it is the cradle of religions، the land of prophets، and the place where the noble prophet ascended.

And since travel literature is one of the literary genres that، in my opinion، has not received its due attention in scientific research and critical study، this modest attempt was made by me to draw attention to this ancient heritage art، and also to serve this journey and its author.

This research aims to approach travel literature in the ١٤th Hijri century، using the journey of the Damascene scholar "Jamal al-Din al-Qasimi" (d. ١٣٣٢ AH-١٩١٤ AD) as a model، which took place in ١٣٢١ AH-١٩٠٣ AD.

The main subject of the research is the spaces of this journey، the most important of which are: (spatial space، temporal space، semantic space، and textual space...).

I benefited from some concepts of the semiotic method and the textual method in order to uncover some of the aesthetics of this creative text that documented this blessed journey.

This research attempted to answer some questions، including: What types of spaces did this journey rely on، what are their semiotic significances، what is the impact of these spaces on the writer's language، and what is the role of the semiotics of passions in the motivations of the journey in general?

The research concluded that this text belongs to travel literature، and its spaces—contained within—had an impact on the text's meaning and deep structure، in addition to its reading and reception. It also expressed the author's vision and his attachment to these sacred places.

Keywords: (Space - Travel Literature - Jamal Al-Din Al-Qasimi - Semiotics – Textuality.

مقدمة

الحمد لله والصلاة على سيدنا رسول الله ﷺ وبعد .

فإن أدب الرحلة من الأنواع الأدبية العريقة في التراث العربي، لما فيها من روعة التصوير، وجمال التعبير، فكانت مجالًا خصْبًا للمقاربات النقدية، ومصدرًا مهمًّا في التعرف على ثقافات الأُمم والشعوب، وكاشفة -كذلك- عن هِمّة السلف في السّفر والترحال؛ امتثالًا للتوجيه الإلهي بالسَّير في أرض الله، سواء أكان غرض الرحلة، دينيًّا، أم علميًّا، أم ترفيهيًّا، أم غيرها من الدوافع والمُحفِّزات .

من أسباب اختيار البحث :

وقد وقفتُ -من خلال الاطلاع- على هذه الرحلة المباركة، رحلة الشيخ "جمال الدين القاسمي (ت١٩١٤م) إلى بيت المقدس"، فتعلّقت بها لأسباب شتّى، منها: ما تكتنزه هذه الرحلة من بعض ملامح أدبية، وفضاءات متنوعة دالّة، وما فيها من وصف دقيق للأماكن المقدسة، وهي أماكن لها في الوعي الجمْعي فضلٌ عظيم، وذِكرٌ كريم، تتوق لها أفئدة الموحِّدين وتشرئب إليها أعناقُ العاشقين، وبخاصةٍ ما تتعرض له هذه الحِقبة من محاولات تهويدٍ وتغريبٍ وتخريب !

أهمية الموضوع وأهدافه :

ولما كان أدب الرحلات من الأنواع الأدبية التي لم تأخذ- في رأيي- حقها المناسِب في البحث العلمي والدرس النقدي، حاولت لفت الأنظار إلى هذا الفن التراثي العريق، وخدمة -أيضًا- لهذه الرحلة وصاحِبها؛ فصاحبها علّامة الشّام الشيخ "جمال الدين القاسمي"، أما عن الأرض المباركة، فهي أرض الرباط، وأرض "الأقصى" و"المَسْرى"، وكان من أسباب هذا البحث- كذلك- تسليط الضوء على ما بها من مآثر، وما تحتويه من مفاخر، ثم سُهمة أيضًا في الذّود عن حياضها؛ علها تعود مرة أخرى آمنة مطمئنة في كنف المسلمين .

مصادر البحث

جاء نص هذه الرحلة ضِمن كتاب "جمال الدين القاسمي وعصْره" ، لظافر القاسمي، ابن الشيخ جمال الدين القاسمي، وكذلك في كِتاب "الأعمال المقدسية الكاملة"، الذي

طبعتْه "وزارة الثقافة الأردنية" عام (٢٠٠٩م) ، وقد صدرتْ كاملة مُحقَّقة في بيروت عام ٢٠١٠م، عن دار البشائر الإسلامية .

إشكالية البحث:

وقد حاول هذا البحث الإجابة عن بعض التساؤلات ، منها :

- ما أنواع الفضاءات التي ارتكزتْ عليها هذه الرحلة، وما دلالاتها سيميائيًا، وما تأثير هذه الفضاءات على لغة الكاتب، ودور العاطفة المتوقدة في اختيار الدوال الموحِية، ومدى تداخل الأجناس الأدبية وإفادة الكاتب منها في توصيل الرسالة، وما أثر تداخل النصوص في بنية النص الكلية.

منهج البحث: وحاولتُ في هذا البحث الإفادة من بعض مقولات "المنهج السيميائي" والنصِّي، في التعرف على دلالات الفضاءات المتنوعة لهذه الرحلة، وما تكتنزه من إشارات/ رموز، لغوية أو غير لغوية، قد أودعها الكاتب في ثنايا رحلته، فيبوح النص -على إثر ذلك- بأسرارٍ ودلالاتٍ جديدة يتلقفها القارئ؛ وينتج عن هذا تعدد القراءات، وانفتاح النص على تأويلات عدة.

الدراسات السابقة:

لم أعثر- من خلال البحث- على دراسةٍ مستفيضةٍ تتناول هذه الرحلة بالنقد والتحليل، بخلاف البحوث الكثيرة التي تناولتْ نتاج الشيخ العِلمي والدعوي...، غير أن هناك مقالًا قدّم قراءةً لهذه الرحلة بعنوان" **قراءة في كتاب رحلتي إلى بيت المقدس**"، لمبتسم الأحمد، مجلة بيت المقدس للدراسات، عدد: ١١، سنة : ٢٠١١م، وهو مقالٌ موضوعي، رسم خريطة الكتاب/ التحقيق، واقتبس بعضًا من فقرات الرحلة، مُبديًا إعجابه بحُسن الوصف، وجمال التصوير، كما أثنى فيه على جهود مُحقّق الرِّحلة .

ومقالًا آخر نُشر على صفحات جريدة "العربي الجديد"(٧-١١- ٢٠٢٣م)، بعنوان "**رحلة جمال الدين القاسمي.. القدس أواخر العصر العثماني**"، للأستاذ محمد الأرناؤوط، تحدّث فيه عن الظروف السياسية التي واكبتْ رحلة "القاسمي"، وعن شخصية كاتِبها، وحرصه على الاجتهاد والتجديد.

ومن البحوث التي تناولت رحلات الشيخ: بحث بعنوان "القهوة في دمشق من خلال

رسالة الشيخ جمال الدين القاسمي الدمشقي" للدكتور" محمد خير البقاعي"، مجلة التراث العربي– دمشق، عدد: ١٠٩، سنة : ١٤٢٩هـ– ٢٠٠٨م .

وجميعها لم تتناول فضاءَ الرحلة إلى "بيت المقدس" بأنواعه ودلالاته؛ ولذا كان هذا البحث.

خطة البحث :

وقد اقتضتْ طبيعة البحث أن يتألّف من مقدمةٍ وتمهيدٍ وثلاثة مباحث، وكان التمهيد؛ للتعريف بالشيخ "القاسمي"، وذِكْر نُبذةٍ عن الرحلات المَقدسية وأهدافها وأدبيَّتها، ثم ثلاثة مباحث: الأول: بعنوان الفضاء الزماني والمكاني، سبقه مدخلٌ عن مفهوم الفضاء، والعلاقة بينه وبين المكان، والثاني: تناوَل الفضاء النصي بمظاهِره المتنوعة، والثالث: خُصِّص لبيان الفضاء الدلالي وبعضٍ من مُكوِّناته .

ثم كانت الخاتمة؛ بغرض ذِكْر أبرز نتائج البحث، تَلَاها ملحقٌ تضمّن فقرات مُختارة من الرحلة، ثم ثبتٌ بأهم المصادر والمراجع التي اتَّكأ البحث عليها، ثم فهرس المحتويات.

واللهَ أسألُ أن يجعل هذا العمل صالحًا، ولوَجهه خالصًا، والحمد لله رب العالمين.

الباحث

تمهيد

(الشيخ القاسمي ورحلته إلى بيت المقدس)

أولًا: التعريف بالشيخ جمال الدين القاسمي (١٢٨٣-١٣٣٢هـ) (١٨٦٦-١٩١٤م)

اسمه ونسبه

في بيتٍ من بيوت العِلم والأدب، والحَسب والنّسب، نشأ علّامة الشام الشيخ "جمال الدين القاسمي"، فصار من أعيان القرن الثالث عشر؛ بما خلف من حُسن ذِكْرٍ وجميل أثر.

تَرجَم القاسمي لنفْسه، كعادة كثيرٍ من النوابغ، وإحياءً لسُنّة أبيه، الذي ترجم لنفْسه ولأبيه كذلك[١]، وقد نقل هذه الترجمة -التي هي بخطِّ يده- ابنُه في كتابٍ -تَرْجَم لأبيه فيه- سمّاه (جمال الدين القاسمي وعصره) [٢].

وجمال الدين القاسمي: دمشقي المولد والوفاة، فقد ولد عام (١٢٨٣هـ- ١٨٦٦م)، يقول عن نفْسه: "ولادتي كما رأيتها بخط والدي الماجد ... كانت في ضحوة الاثنين، لثامن خلت من شهر جُمادى الأُولى، سنة ثلاث وثمانون ومئتين وألف، بوطننا "دمشق"، منبت الآباء ومستقر الأجداد"[٣] .

وجَدّه الشيخ "قاسم الحلّاق"، يقول مترجِمًا له ومفتخرًا به: "وجَدِّي العلامة الكبير، والأستاذ النحرير من اشتهر بصلاحه وعلمه في الآفاق: الشيخ "قاسم الحلاق"، وهو جد العائلة القاسمية في دمشق"... وقد ألّف في سيرته أكبرُ أنجاله (والدي) كتابًا سمّاه (الثغر الباسم في ترجمة الشيخ قاسم) [٤].

---

(١) وذلك في كتابه" شرف الأسباط، مطبعة الترقي، دمشق، ط. ١، ١٣٣١هـ .

(٢) وابنُه هذا "ظافر جمال الدين القاسمي"، وقد افتتَح كتابَه بتقديمٍ يقْطُر محبةً ومودةً وتعظيمًا لوالِده، وعنه كتب الشيخ "محمد بهجة البيطار" (ت: ١٩٧٦م) ، مقالًا في مجلة "مجمع اللغة العربية" بدمشق، عدد يناير، ١٩٦٧م، وهو مقال مفعمٌ بالتقدير والإعجاب من موسوعية المترجَم له، ووفاء المترجِم وقلمه العذب الموضوعي السيَّال.

(٣) جمال الدين القاسمي وعصره، ظافر جمال الدين القاسمي، ص ٢٢، المطبعة الهاشمية، دمشق، ط. ١، ١٩٦٥م.

(٤) ينظر: شرف الاسباط، ص٧٩.

يَتيه بقَرابته لـــــــــ"آل دسوق" بـــــ"مصر"، ويفتخر بانتسابه لجَدّه لأُمِّه الشيخ "محمد الدسوقي"، يقول: فإن الفقير –يعني نفْسه– "محمد جمال الدين القاسمي" بن السيد "محمد سعيد القاسمي" بن السيدة "عائشة "بنت السيدة "فاطمة الدسوقية"، بنت السيد "محمد الدسوقي" المتصل نسبه بآل البيت"[١]، وقد ألَّف كتابه "شرف الأسباط"، ذاكرًا فيه أهمية النّسب، مبينًا فضْل الأسباط والأشراف، ومُوثِّقًا لنسبه بوثائقَ حصل عليها من "نقابة الأشراف المصرية" في إحدى رحلاته إلى القاهرة، والتي التقى فيها بالسيد "محمد رشيد رضا""(ت ١٩٣٥م)، والإمام "محمد عبده" (ت ١٩٠٥م) ، رحمهم الله جميعًا .

نبوغه وعِلمه

أمّ القاسميُ الناسَ للمرّة الأُولى في مسجدٍ جامع، بأحد أحياء دمشق، بعد أن بلغ العشرين من عمره[٢] .

وكان كثيرَ التهذيب لنفْسه مجاهدًا لها، كعادة العلماء الرّبانيين، "فلا يكاد يمضي عليه يوم لم يستفد منه فائدة، ولم يقيِّد شاردة؛ فظهرتْ عليه مخايل النبوغ، قبل أن يبلغ العشرين من عُمره"[٣].

وكان من أهم روافده ومكوناته الثقافية: حفظه للقرآن الكريم وتجويده له، وحضور دروس العلم، "ولم يزل مجافيًا في طَلَبه اللذة وطِيب الرقاد، إلى أن بلغ المقصود والمراد"[٤].

وكانت القِيم الخُلقية تعاضد تفوّقه العلمي، "فكان تقيًّا ناسكًا، واسعَ الحلم، سليمَ القلب، نزيهَ النفْسِ واللسان والقلم، يأخذ ما صفا، ويدع ما كدر"[٥].

---

(١) السابق

(٢) جمال الدين القاسمي وعصره، ص٤٢.

(٣) ينظر: "جمال الدين القاسمي" .. أحد علماء الإصلاح في العصر الحديث في الشام ، د. نزار أباظة، ص ٦، دار القلم ، دمشق ، ط. ١٩٩٧م.

(٤) ينظر: حلية البشر في تاريخ القرن الثالث عشر، عبد الرزاق البيطار، (ت ١٣٣٥ه)، ص ٤٣٥، دار صادر بيروت ، ط. ٢، ١٩٩٣م .

(٥) جمال الدين القاسمي، د. نزار أباظة ، ص ٥.

وظل يتنقل بين المُدن والأحياء، يدعو إلى الله على بصيرة، حتى اتُّهم في مذْهبه، فيما عرف حينئذ بفتنة المجتهدين (١٣١٣ه)؛ فقد اتهمه الوشاة–وهو على أبواب الثلاثين– بتأسيس مذهبٍ باسمه؛ فتم إيقافه، لكنه أُخلي سبيله بعد أن رَد الاتهام عن نفْسه، وقد اعتذر إليه والي "دمشق" حينئذ..."[١].

آثاره:

للشيخ كثيرٌ من التصانيف في فنون مختلفة من العلوم، كما نُشرت له بحوثٌ متنوعة في الصحف والمجلات، اطّلع له "الزِّرِكْلِيُ"– كما يقول في ترجمته له–على اثنين وسبعين مصنفًا، أبرزها "محاسن التأويل في تفسير القرآن الكريم–(جُمِع في سبعة عشر مجلدا)،و"موعظة المؤمنين (اختصر به "الإحياء" للغزالي)، و"شرف الأسباط"، و"تنبيه الطالب إلى معرفة الفرض والواجب"، و"إصلاح المساجد من البدع والعوائد"، و"قواعد التحديث من فنون مصطلح الحديث، ...)[٢] فضلًا عن رحلاته التي وثّقها وسَرد تفاصيلها.

وقد أثنى العلماء والمفكرون على تصانيفه ، وأوصوا بها طلاب العلم وشُداته ، ومن هؤلاء: "أمير البيان "شكيب أرسلان" (ت١٩٤٦م)، الذي يقول: "وإني لأُوصي جميع الناشئة الإسلامية التي تريد أن تَفهم الشَّرع فهمًا ترتاح إليه ضمائرُها، وتنعقد عليه خناصرُها؛ ألا تقدّم شيئًا على قراءة تصانيف المرحوم "جمال الدين القاسمي"، الذي قسمَ الله له من اكتناه أسرار الشرع ما لم يقسمه إلا لكبار الأئمة وأحبار الأُمَّة، والله تعالى ينفع المسلمين بآثاره، ويهديهم في ظلمات هذه الحياة بزاخر أنواره" [٣] .

---

(١) ينظر: معجم المؤلفين، عمر رضا كحالة، ج٣، ص ١٥٨، دار إحياء التراث العربي بيروت. والأعلام للزركلي، ج٢، ص ١٣٥، دار العلم للملايين، ط. ١٥، ٢٠٠٢م.

(٢) ينظر: السابق، وتراجع ترجمته– أيضًا– في "معجم المطبوعات، يوسف سركيس،ج٢، ص١٤٨٣، ١٤٨٤، مطبعة سركيس– مصر،١٩٢٨م، وفي "معجم المفسرين"، عادل نويهض، ص١٢٧، مؤسسة نويهض الثقافية، ط. ٣، ١٩٨٨م.

(٣) هذه الفقرة من تقديم أمير البيان "شكيب أرسلان" لكتَاب "القاسمي" ""قواعد التحديث من فنون مصطلح الحديث" ص١٢، تحقيق: مصطفى شيخ مصطفى، مؤسسة الرسالة ناشرون، ط. ١، ٢٠٠٤م،

ووصفه الأستاذ "محمد رشيد رضا" بأنه "مجدّد لعلوم الإسلام، مُحي السنة بالعِلم والعمل والتهذيب والتأليف، وأحد حلقات الاتصال بين هدْي السلف، والارتقاء المدني الذي يقتضيه الزمن" [١].

رحلاته.. أهدافها وبواعثها ووُجْهتها .

كان كثير الترحال ما بين "المدينة المنورة"، و"بيت المقدس"، والديار المصرية، وداخل الشام في "حمص" و"حماة"، ... التقى فيها بكثير من أعلام الفقه والفكر والأدب؛ إذا إن الرحلة كانت جزءاً مُهمًّا من رسالته التي نَذَر نفْسه لها .

فكانت دعوةً إلى القيم والمبادئ الفاضلة، واتصالًا بالعلماء والمفكرين، ونشرًا للوسطية والاعتدال، فضلًا عن حرصه على اكتشاف غرائب الدنيا وأعاجيبها، ورغبته – أيضًا– في الاطلاع على الجديد في الحياة، وتسخيره في خدمة الأُمّة، "فصحَّ فيه التعريف الحقيقي للعالِم "الذي هو – قبل كل شيءٍ– العالِم بأحوال عَصْره ومِصْره"[٢] .

فبدأ رحلاته"[٣] –المحلية– إلى "وادي العجم"/على حدود "دمشق"، وكَتب سبب هذه الرحلة في رسالة سمَّاها "بذل الهِمَم في موعظة أهل وادي العجم"، وكانت رحلته التالية إلى "النبك"[٤] عام(١٣١١ه)، وكتب رسالته "حُسن السبك في الرحلة إلى قضاء النبك".

وكانت رحلته إلى "مصر" عام ١٣٢١ه، وهو العام نفْسه الذي ارتحل فيه "إلى بيت المقدس"، وخُتمت رحلاته المباركة بالرحلة إلى "المدينة المنورة" عام ١٣٢٨ه.

وفاته

تُوفي في دمشق عام (١٣٣٢هـ–١٩١٤م) عن تسعةٍ وأربعين عامًا، فسبحان من بارك في العِلم والعُمر !

وقد قام ابن الشيخ القاسمي (ظافر) بإرسال هذا الكتاب لـــ"شكيب أرسلان"؛ كي يُقدِّم له، بعد وفاة "القاسمي"؛ لما كان بينهما من صداقة وثيقة .

(١) وذلك في مقاله "الشيخ محمد جمال الدين القاسمي"، مجلة المنار، مجلد: ١٧، ص ٥٥٨، ٢٨ ديسمبر، ١٩١٣م.

(٢) من تقديم "شكيب أرسلان" لكتاب "قواعد التحديث"، ص ١٢.

(٣) ينظر: جمال الدين القاسمي وعصره، ص ٩٧.

(٤) قال عنها ياقوت الحموي: "إنها قرية مليحة بذات الذخائر بين حمص ودمشق، وفيها عين عجيبة باردة في الصيف صافية طيبة عذبة". معجم البلدان، ج٥، ص٢٥٨، دار صادر، بيروت، ط. ٢، ١٩٩٥م.

تعريف برحلته/ مدونة الدراسة :

كانت رحلة القاسمي إلى "بيت المقدس" في عام(١٣٢١هـ= ١٩٠٣م)، وبلغتْ الرحلة أربعين يومًا، حسب ما نَصَّ هو على ذلك في ختام رحلته.

وجاء نص هذه الرحلة ضِمن كتاب "جمال الدين القاسمي وعصْره"، لظافر القاسمي، وفي كتاب "الأعمال المقدسية الكاملة"، الذي طبعتْه "وزارة الثقافة الأردنية" عام (٢٠٠٩م)[١]، وقد صدرتْ كاملة مُحقَّقة، عام ٢٠١٠م[٢].

ثانيًا: الرحلة إلى بيت المقدس

تعد الرحلات إلى مدينة "القدس" من أبرز الرحلات التي عُني بها الرحالة المسلمون بعد-مكة والمدينة- لما تمثله من قيم رُوحية ودينية؛ فهي مهبط الديانات، وأرض الأنبياء، ومَسْرى النبي الكريمﷺ الذي بارك الله حوله، كما جاء في صدر سورة "الإسراء".

كما أن هناك أحاديثَ نبوية كريمة ترغِّب في زيارتها؛ ففيها "المسجد الأقصى" القِبْلة الأولى للمسلمين- الذي تفْضُل صلاته عن باقي المساجد -عدا المسجد الحرام والمسجد النبوي- بخمسمائة صلاة [٣]، وهو ثاني المساجد التي بُنيت في الأرض بعد "البيت العتيق"[٤]، كما نَصّ النبي ﷺ على زيارته والإهداء إليه؛ فقد سئل عنه ذات مرة؛ فقال:"ائْتُوهُ فَصَلُّوا فِيهِ"- وَكَانَتِ الْبِلاَدُ إِذْ ذَاكَ حَرْبًا- "فَإِنْ لَمْ تَأْتُوهُ وَتُصَلُّوا فِيهِ؛ فَابْعَثُوا

---

(١)الأعمال المقدسية، د. كامل العسلي، ص٣٣٣: ٣٤٣، وزارة الثقافة، عمَّان، ٢٠٠٩م .

(٢) حققها الأستاذ "محمد بن ناصر العجمي"، عن دار البشائر الإسلامية، بيروت، ط. ا، ٢٠١٠م، وقد أشار في بيانات الكتاب(على الغلاف) إلى أن من أسهم في طباعتها أحدُ المحسنين وزوجته من "المدينة المنورة"، وهي المعتمدة في توثيق نصوص هذا البحث .

(٣) عن أبي الدرداء وجابر- رضي الله عنهما -عن النبي ﷺ قال: " فضل الصلاة في المسجد الحرام على غيره مائة ألف صلاة، وفي مسجدي هذا ألف صلاة وفي مسجد بيت المقدس خمسمائة صلاة". أخرجه البيهقي في السنن الصغرى، رقم (١٨٢١) .

(٤) "سَأَلْت رَسُول اللَّه ﷺ أَيّ مَسْجِد وُضِعَ أَوَّلًا قَالَ الْمَسْجِد الْحَرَام قُلْت ثُمَّ أَيّ قَالَ الْمَسْجِد الْأَقْصَى قُلْت: وَكَمْ بَيْنهمَا قَالَ: أَرْبَعُونَ عَامًا". أخرجه البخاري (٣٤٢٥)، ومسلم (٥٢٠)، عن أبي ذرٍّ، رضي الله عنه .

بِزَيْتٍ يُسْرَجُ فِي قَنَادِيلِهِ"[١].

ولا يغيب عن الأذهان أن بعض أسباب تعلّق القلوب بهذه المدينة يرجع إلى تعرُّضها بين الحين والآخر إلى امتحانٍ شديدٍ ومحاولات أعداء الأُمَّة احتلالها، وبسْط سيطرتهم عليها.

ومن هذه الأسباب-أيضًا- أنها كانت- ولا تزال إن شاء الله- مركز إشعاعٍ علميٍّ وثقافيٍّ، تهفو إليه النفوس؛ مما حدا بـــ"ابن هشام الأنصاري" (ت٧٦١هـ)، الإمام النحوي المعروف أن يؤلف كتابه "تحصيل الأُنس لزائر القدس"؛ لتلخيص "بعضَ فضائل الأرض المقدسة، وللتنبيه على أمور مهمة يحتاج إلى معرفتها مَن قصد زيارة المسجد"[٢] .

ولهذا يُلحظ الكثير من التصانيف التي عُنيت بجمْع هذه الرحلات التي قام بها الرحّالة، منها كتاب "الأعمال المقدسية الكاملة"، والذي قُسِّم قسمان: الأول: عن "القدس في التاريخ"، والثاني: بعنوان: "بيت المقدس في كتب الرحلات عند العرب والمسلمين"، وقد كانت رحلة "القاسمي"-بكاملِها- جزءًا منه [٣]، وجَمع كثيرًا من هذه الرحلات- أيضًا- صاحب كتاب "الرحلة والرحّالة والمسلمون"[٤].

وتوثيق الرحلة إلى القدس قديمٌ ؛ فهذا "أبو عبد الله محمد المقدسي" (ت٣٨٠هـ) يقول عنها وعن إقليم الشام": "إقليم الشام ديار النبيين ومركز للصالحين،... به القِبْلة الأُولى ومَوضع الحَشْر والمَسرى... بها مهاجر "إبراهيم" وقبْره ، وعجائب "سليمان" ومُدنه..."[٥].

---

(١) سنن ابن ماجه، (١٤٠٧)، كما أنه من المساجد التي لا تُشدُّ الرِّحال إلا إليها، قال رسول الله ﷺ: "لاَ تُشَدُّ الرِّحَالُ إِلاَّ إِلَى ثَلاَثَةِ مَسَاجِدَ: الْمَسْجِدُ الْحَرَامِ، وَمَسْجِدِي، وَبَيْتُ الْمَقْدِسِ". البخاري (١١٨٩).

(٢) تحصيل الأُنس لزائر القدس، ابن هشام الأنصاري، تحقيق: عيسى القدومي، وخالد نواصره، ص٩٣، مركز بيت المقدس للدراسات التوثيقية، قبرص ، ٢٠١٠م .

(٣) الأعمال المقدسية، ص٣٣٣: ٣٤٣.

(٤) للدكتور "أحمد رمضان أحمد"، عن دار البيان العربي، جدة، د. ت .

(٥) أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، المقدسي، ص١٥١، مكتبة مدبولي- القاهرة، ط.٣، ١٩٩١م.

ومن الرحَّالة الذين آثروا القُدس بالرحلة والزيارة[1]: أبو عبد الله الطنجي، المشهور بابن بطوطة (ت٧٠٣ه) الذي زار القدس في إحدى رحلاته، وتحدث فيها عن فضل "المسجد الأقصى" و"قبة الصخرة"، وأبرز معالم المدينة المُقدّسة وفضلائها، وذلك في رحلته التي سمّاها "تحفة الأنظار في غرائب الأمصار وعجائب الاسفار"، ومنهم – أيضًا– الشيخ "عبد الغني النابلسي"(ت١١٤٣ه) في رحلته "الحضرة الأُنسية في الرحلة القُدسية"، و"مصطفى البكري" (١١٦٢ه) في رحلته "الخمرة المحسية في الرحلة القدسية"، و"مصطفى اللقيمي"(١١٧٢ه) في رحلته "موانح الأُنس في رحلتي لوادي القدس"، و"نعمان القسطالي"(ت١٣٠٥ه) في "الروضة النعمانية في سياحة فلسطين وبعض البلاد الشامية"، وغيرها من التصانيف التي عُنيت بجمع هذه الرحلات؛ حفاظًا على جهود الرحالة، واحتفاءً –كذلك– بهذا المكان المُقدَّس .

الرحلة كنوعٍ أدبي.

الرحلة نصٌّ أدبيٌّ عريق في التراث العربي، بلْه الإنساني كُلِّه؛ قد فُطر الإنسان عليها؛ بحثًا عن الماء والكلأ، أو بحثًا عن أمنٍ مفقود، أو من أجل التجارة، وهذه الأخيرة وردَ ذُكْرها في "القرآن الكريم" في سياق الحديث عن "قريش" ورحلة الشتاء والصيف، أو الرحلة العلمية، أو الروحية الدينية، والتي يقصد بها الأماكن المقدسة، وأهمها في التراث العربي تلك التي يُتوجّه بها إلى أحد المساجد الثلاثة: "المسجد الحرام، أو المسجد النبوي، أو بيت المقدس" زادها الله –جميعًا– جَمَالًا وجلالا، وتعد الرحلة – عمومًا–"من أهم فنون الأدب العربي؛ لسبب بسيط، وهو أنها ردٌّ عمليٌّ على التُّهمة التي طَالَما اتُّهم بها الأدب العربي، أي قصوره في فنِّ القصة"[2].

والرحلة باعتبار الدلالة المُعجمية تعني: الانتقال من مكانٍ إلى آخَر، وهو ما يفعله كلُّ مرتحِل، و"طريقة التدوين هي التي تُحدِّد إلى أي حقلٍ ينتمي النص إلى الجغرافيا الوصفية، أم الأدب الجغرافي، أم أدب الرحلة..." [3] .

---

(١) وقد جَمَع هذه الرحلات كتابُ "الأعمال المقدسية" .

(٢) الرحلات، د. شوقي ضيف، ص٦، دار المعارف، ط. ٤، ١٩٨٧م.

(٣) ينظر: الرحلة في الأدب العربي حتى نهاية القرن الرابع الهجري، د. ناصر عبد الرازق الموافي،

وهي نوعٌ أدبيٌّ منفتحٌ على أجناس وأنواع أخرى، كما أنها-منذ قديم- محطّ أنظار الباحثين وموضع عنايتهم في علومٍ شتّى، كالعلوم الجغرافية، والتاريخية، والسياسية، والاجتماعية...، فضلًا عن الأدباء والنقاد الذي يتتبعون هذا النوع الأدبي المُهم الذي كان شاهداً وحَكَمًا على اهتمامات الكُتّاب في خطابهم الرِّحلي، وهي تُعنى -أكثر ما تُعنى- بوصف المشاهد والغرائب والعجائب وطبائع الناس وغيرها من المظاهر والظواهر، وبهذا كان تعريفها في المعاجم الأدبية؛ فهي "مجموعة الأثار الأدبية التي تتناول انطباعات المؤلف عن رحلاته في بلاد مختلفة، وقد يتعرض فيها لوصف ما يراه من عادات وسلوك وأخلاق"(١).

هذا بالنسبة للمحتوى المعرفي، بينما فنيًّا ترصد التقنيات والأشكال التعبيرية، والانفتاح على الفنون الأدبية الأخرى من شِعْرٍ، ورواية، ومقامة، وسيرة ذاتية...، ومدى نجاح الكاتب في توثيق ملاحظاته، وتصوير مشاهداته للمتلقي كأنما يراها هو الآخَر، بعينٍ شاهِدة، لا بأذنٍ سامعَة، وتوفيقه في بناء سرْده، ونصاعة لُغته؛ والحُكم لكل ذلك أو عليه؛ فمادة الرحلة" كثيرا ما تحتوي على عناصرَ أدبية، بجانب المعلومات الإثنوجرافية"(٢).

هذه العناصر الأدبية، ينبغي مقاربتها وسبر أغوارها؛ للوقوف على جماليات التشكيل وروعة الوصف والتصوير، وهو ما أحاول فِعْلَه في هذه الرحلة؛ من خلال بيان فضاءاتها المتنوعة، والتي كان لها أثرٌ في إبداعها وتلقِّيها، كما سيتبين في المباحث الآتية.

ص٣٥، دار النشر للجامعات المصرية – مكتبة الوفاء، ط. ١، ١٩٩٥م .

(١) قاموس المصطلحات اللغوية والأدبية، إميل يعقوب وآخرون، ص ٢٥، دار العلم للملايين، ط.١، ١٩٨٧م.

(٢) ينظر: أدب الرحلات، د. حسين فهيم، ص١٧، عالم المعرفة، المجلس الوطني للثقافة والفنون، الكويت، يونيو- ١٩٨٩م .

المبحث الأول

الفضاء المكاني والزماني

مدخل (مفهوم الفضاء)

الفضاء هو ذلك المصطلح الذي يتلاقَى معناه اللغوي مع ما اصطَلح عليه كثيرٌ من النقاد؛ حيث يدورُ معناه في المعاجم اللغوية حول الخَلاء والاتساع، والفراغ والحيِّز....

وقد اتكأ النقاد والمنظِّرون له على هذه الدلالة؛ فهو عند الدكتور "حميد لحمداني"[١]: "مجموع الأمكنة التي تقوم عليها الحركة الروائية المتمثِّلة في سيرورة الحكْي، سواءً تلك التي تم تصويرها بشكلٍ مباشر، أم تلك التي تُدرَك بالضرورة، وبطريقة ضمنيّة مع كل حركةٍ حكائية" [٢] .

والفضاء –بهذا المفهوم– لا يُقصد به الحيّز المكاني فحسب، بل يُرى في بنية النص السطحية والعميقة، في الزمن والشخصيات والمفردات والتراكيب، "إنه لا يغيب مطلقًا حتى ولو كانت الرواية–أو أي عمل أدبي قائمًا على الوصف والسرد– بلا أمكنة" [٣]، ولذا قُسِّم الفضاء في الدراسات النقدية الحديثة أربعة أنواع متكاملة متوازية، هي: "المكاني/ الجغرافي، والنصي، والدلالي، والفضاء كمنظور أو رؤية"[٤] .

وجميعها تبحث عن القيم الرمزية المودَعة في ثنايا الخطاب، من خلال مقاربة رؤية السّارد، والأماكن التي كثُر دورانها، والشخصيات التي قابلها والبنْية الزمنية التي تستوعب كلّ ذلك، "وقياس درجة كثافة أو سيولة الفضاء الروائي"[٥] ، وتوجيه القارئ

---

(١) أكاديمي مغربي بارز، وناقد أدبي ومترجم، عُني بمجال السرديات والمناهج النقدية الحديثة، من مواليد (١٩٥٠م)، حصل على كثيرٍ من الجوائز؛ لنشاطه وإبداعه. ينظر: موقع ويكبيديا الموسوعة الحرة. رابط: https://ar.wikipedia.org/

(٢) بنية النص السردي، د. حميد لحمداني، ص ٦٤، المركز الثقافي العربي، ط. ١، ١٩٩١م.

(٣) ينظر: شعرية الفضاء السردي، حسن نجمي، ص ٦٥، المركز الثقافي العربي، ط. ١، ٢٠٠٠م .

(٤) ينظر: بنية النص السردي ، ص ٦٤.

(٥) ينظر: بنية الشكل الروائي، د. حسن بحراوي، ص ٢٥، المركز الثقافي العربي، بيروت، ط. ١، ١٩٩٠م.

لإدراك هذه الرموز والإشارات الدالة والمؤثرة على أجواء العمل الأدبي بصفة عامة.

ويتضح بهذا أن مفهوم الفضاء– بهذا الاتساع والشمول– ليس أمراً ثانوياً بل له حضور طاغٍ في أي نصٍ يقوم على الحكاية، وله أهمية أيضاً في القراءة والتأويل؛ فالفضاء تقنية يَكتب بها السارد لا يَكتب عنها، والفضاء يحيط بالأدب من خارجه ويتحقق فيه من داخله، وإذا كان الفضاء داخل النص نوعاً من الخصائص، فإن مجال عمل الشِّعرية حين تعمل على كشف طرائق تشكيله وآليات عمله" [1]، وتكون للسيمائية والنصيّة دورٌ بارز في رصد المؤشرات، وفهم الدلالات، وتحليل الرموز، واكتشاف العلاقة بين النصوص الغائبة والحاضرة ، وبين إطار العمل الخارجي ومحتواه الداخلي .

العلاقة بين الفضاء والمكان

وإذا كان الفضاء له هذه النظرة الكُليّة، لكن ينبغي التفرقة بينه وبين المكان؛ لوجود علاقة عموم وخصوص بينهما، فالفضاء(space) أعم ، والمكان(place) أخص، والفضاء بذلك "يشير إلى ما هو أبعد من وأعمق من التحديد الجغرافي، وإن كان هذا الفضاء أساسيًّا"[٢].

وللفضاء–بهذا–يتداخل مع الأحداث، والشخصيات، وزمن الحكْي، فضلًا عن الأماكن التي تتوالى في النص، وسواء كانت مباشرة أم يتم تأويلها، فإنها تنضوي تحت راية الجمالية الواقعية، التي تُحيل على أماكن حقيقية لا متخيلة، ويكون الفضاء –بذلك– "المادة الجوهرية للكتابة الروائية، ولكل كتابة أدبية " [٣] .

ولهذه الخصائص؛ يُنظر إلى المكان نظرة مادية محسوسة، بينما يُنظر إلى الفضاء نظرة وظيفية، بإيحاءاته ورموزه، حيث يقوم تصور ترسيخه "غاستون باشلار"(ت

---

(١) ينظر: شعرية الفضاء في رواية "حكايات حارتنا"، د. مصطفى الضبع، مجلة فصول، عدد: ١٠١، خريف ٢٠٠٧م، ص ٥٠٨.

(٢) قال الراوي، د. سعيد يقطين، ص٢٤٠، المركز الثقافي العربي، بيروت، ط.١، ١٩٩٧م .

(٣) شعرية الفضاء السردي، د. حسن نجمي، ص ٥٩ .

١٩٦٢م) [١] على دراسة القيم الرمزية المرتبطة، إما بما يشاهده الراوي، أو من خلال ما تراه الشخصيات من مشاهد، وإما بأمكنة الإقامة المغلقة أو المفتوحة/ المحصورة والشاسعة، مركزية كانت أو هامشية، الجوفية منها أو الهوائية، وهي من ضروب من المقابلات"[٢] التي ينبغي معرفة ما ترمز إليه، على الأحداث، وعلى شخصية الكاتب .

وبناء على ما سبق فإن البحث سيلتزم بما قسمه الدكتور "حميد لحمداني" بأنواع الفضاء وهو الفضاء المكاني/ الجغرافي، الفضاء النصي، الفضاء الدلالي"[٣]، من خلال بعض مقولات المنهج السيميائي والنصِّي، حيث "يستعمل الفضاء في السيميائيات كموضوع تام يشتمل على عناصر غير مستمرة، انطلاقا من انتشارها ...، ويفترض الفضاء اعتبار كل الحواس في سيميائية الاهتمام بالفاعل، كمنتج ومستهلك للفضاء"[٤]؛ إذ إن الفضاء لا يُنظر إليه بمنظور العين الشاهدة، بل يشمل جوانب أخرى كثيرة، ينبغي مقاربتها .

الفضاء المكاني والزماني

من المُسلَّم به أن بين عنصري المكان والزمان ارتباطٌ وثيقٌ لا ينفك أحدهما عن الآخر، يعملان في مسار الحكي بشكلٍ متزامن، من خلال بُعدين: أُفقي وعمودي، "البُعد الأفقي الذي يشير إلى السيرورة الزمنية، والبُعد العمودي يشير إلى المجال الكَوني الذي

---

(١)"غاشتون باشلار" أكاديمي وفيلسوف وناقد، يعد كتابه "جماليات المكان" من المصادر الأصيلة في فلسفة المكان وجمالياته، عمل أستاذًا لتاريخ وفلسفة العلم في جامعة السوربون (١٩٤٠- ١٩٥٤م)، أسهم بصورة كبيرة في نظرية (الابستيمولوجيا)، وأثَّر في كثيرٍ من رواد البنيوية ، وما بعد البنيوية ، توفي عام ١٩٦٢م . ينظر: خمسون مفكراً أساسيًّا معاصراً من البنيوية إلى ما بعد الحداثة، جون ليشته، ص٢١ وما بعدها، ترجمة: فاتن البستاني، المنظمة العربية للترجمة، بيروت، ط١، ٢٠٠٨م .

(٢) معجم السرديات، محمد القاضي وآخرون، ص٣٠٦، الرابطة الدولية للناشرين المستقلين، ط. ١، ٢٠١٠م.

(٣) أما الفضاء باعتباره كمنظور أو رؤية –وهو المكوِّن الرابع من مكونات الفضاء التي عدها "لحمداني"– سيظهر ضمنيًّا في هذه الفضاءات الثلاث التي اقتصرتُ عليها؛ منعا للتكرار والاستطراد.

(٤) معجم المصطلحات الأدبية المعاصرة، د. سعيد علوش، ص١٦٤، دار الكتاب اللبناني، بيروت، ط. ١، ١٩٨٥م.

تجري فيه الأحداث، وعن طريق التحامهما يكون فضاء النص"[1]، بل إن ميخائيل باختين[2] (Mikhaïl Bakhtin) أطلق عليهما مصطلح "الزمكانية" (Spatiotemporal Structure)، أي التفاعل الأساسي للزمان والمكان كما استوعبهما الأدب"[3]، ولهذه العلاقة الوطيدة؛ آثرتُ الإتيان بهما في مبحثٍ واحد .

أولًا : الفضاء المكاني

الفضاء المكاني(Spatial Space) من أهم انواع الفضاءات التي حرص "القاسمي" في رحلته –هذه– على اتساع مساحتها؛ فهو "الفضاء الذي يتحرك فيه أبطال الحكاية"[4]، ويؤدي دوراً مهما في التشكيل والدلالة، وتتبدّى فيه رؤية صانع الخطاب لعالَم رحلته .

والفضاء المكاني معادل للجغرافي في كثيرٍ من الوظائف، وقد احتفى "القاسمي" بجغرافية الأماكن التي شكّلتْ فضاء رحلته، وعكست أهمية البُعد المكاني في الوقوف على حضارة هذه البلاد وثقافتها وأبعادها الإنسانية والاجتماعية .

ولذا؛ حرص الكاتب على التعرف على البلاد المحيطة به؛ من خلال المشاهدة الشخصية، والتعريف بها ووصف حددوها ومعالِمها وتضاريسها، وعادات أهلها، والقيم والأخلاق التي يتمثلونها، فالرحلة في الأصل "عنصر قوي في حياة المجتمع الإسلامي في عصوره الزاهرة...، وقد شجّعهم على ذلك خضوع العالم الإسلامي برقعته الواسعة لدولة واحدة في بادئ الأمر، فلما ذهبتْ الوحدة السياسية بقيت وَحدة الدين ووحدة اللغة"[5].

وكان عصر القاسمي– كما هو معروف– مليئًا بالاضطراب والتراجع الحضاري،

---

(1) بنية النص السردي، ص ٨٠.

(٢) باحث روسي، ولد في أورال سنة ١٨٩٥، وتوفي في موسكو ١٩٧٥م، يعد من أكبر المنظرين الماركسيين للأدب في القرن العشرين. ينظر: ميخائيل باختين، لترفيتان تودروف، جدة، ص٢٥، ترجمة: فخري صالح، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ط. ٢، ١٩٩٦م.

(3) تشظِّي الزمن في الرواية الحديثة، د. أمينة رشيد، ص١١، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٩٨م.

(٤) بنية النص السردي، ص ٦٢.

(٥) الجغرافية والرحلات عند العرب، د. نقولا زيادة، ص ١٥، الشركة العالمية للكتاب، بيروت، ١٩٨٧م.

لكنه أراد الاتصال بالعلماء والأدباء؛ تذكيراً بأمجاد الأُمّة، وتسليط الضوء على أهميةِ موقِعها، وجمَالِ مكَانها، ورِفعةِ مَكانتها.

وكانت رحلته حافلة بإبراز تاريخ الأماكن بأبعادها المختلفة، ورمزيتها الدالة، فلم يكتفِ بالمشاهدة والملاحظة، بل أخذ معه كُتبًا لجغرافيّة هذه الأماكن؛ ليوازن بين المسطور والمنظور، ومن دلائل ذلك قوله: "**وكنت أراجع لجغرافية ما ممرنا عليه من الجبال والبلاد والقرى كتاب "الجغرافيا العمومية"، وكتاب "تاريخ المملكة السورية"**..."[(١)].

فهذه الرحلة هدفها- في الأصل- ديني تعبُّدي دعوي توعوي...، إلا أنه عظَّم الفائدة، بأن رأى بعيْنه ما يقرأه في الكتب عن معالم البلاد وتاريخها؛ ليزداد معرفة وعلمًا وإحاطة، ففي سياق حديثه عن تفاصيل الدقيقة لمعالم "بيت المقدس"؛ قال: "**ثم راجعتُ "تاريخ أنس الجليل"؛ فرأيته ذَكَر أن منزلنا المذكور في الأصل زاوية، ونص عبارته في مبحث: "ما في "بيت المقدس" من المدارس والمشاهد بجوار "المسجد الأقصى": "الزاوية الخُتْنية"(٢)، بجوار "المسجد الأقصى" خلف المنبر، وقفها الملك "صلاح الدين" -تغمّده الله برحمته-على رجلٍ من أهل الصلاح...**". [(٣)] .

وغيرها من المظاهر التي تعكس عناية القاسمي بجغرافية الأماكن من خلال القراءة والرحلات

ولهذا جعل دعائم رحلته المقدسية تقوم على أمكنة متوالية تنطلق منها الأحداث التي يُكشف عنها النقاب بواسطة الكاتب؛ فقد بدأ حكْيه بمكان، ثم أردف بذِكْر الأماكن الوسيطة/ القنطرة/ إلى محطة الوصول، وهي أماكن قد أَسلَمَ بعضُها بعضًا، حتى نقطة

---

(١) رحلتي إلى بيت المقدس ص ٨٨، وكتاب الجغرافية العمومية والعثمانية ،لأحمد جودت المارديني، مطبعة الترقي، دمشق، ١٩١٣م. والثاني: كتاب تاريخ المملكة السورية، لإلياس مطر، دار السعادة العلية- المعارف، بيروت، ١٨٧٤م.

(٢) زاوية تغطي على الباب المزدوج لحماية "المسجد الأقصى"، أسسها "صلاح الدين الأيوبي"، وفيها مدرسة ومكتبة، وسُميت بهذا الاسم؛ نسبة إلى شيخ يعرف بالخُتني. ينظر: الموقع الإلكتروني لأرشيف المتحف الفلسطيني الرقمي، رابط: https://palarchive.org/

(٣) رحلتي إلى بيت المقدس، ص٥٥، ينظر- أيضًا- الأُنس الجليل، ج٢، ص ١٤٤.

الهدف، والمكان الغاية/ "بيت المقدس"، "فالعلاقة إذن بين السّفر والفضاء تكوِّن شكلًا هندسيًا له أضلاع ثلاثة: مكان الانطلاق، الجسر، الهدف"(١).

أولًا: مكان الانطلاق

حرص الكاتب على تحديد مكان انطلاق رحلته، وهو حارته بجوار "باب الجابية"(٢) المجاورِ لجامع الزيتونة بـــــــ "دمشق"، يقول: "**خرجنا من دارنا ... وهي زقاق العلامة المكتبي، ظاهر "باب الجابية"، المجاور لجامع الزيتونة، فاستطرناها إلى محطة الميدان (القطار)...**"(٣).

والهدف من هذا الاستهلال، إعلان مكان بداية تحركه، ومع إيجازه وتكثيفه، إلا أنه كاف-غالبًا- للتعريف به، وهذا من عادة استفتاح الرحلات، فهو ليس هدفا في حد ذاته، ليُكثر من أوصافه الدقيقة، بل نقطة بداية ورجوع، "يجيء مفتوحًا ومترسبًا في النفْس... وبخاصةٍ في اللحظة التطهيرية التي تكون مصاحبة – غالبًا- لرحلات الحج، وزيارة الأماكن المقدسة" (٤) .

ومن الممكن أن يُفهم من هذا الإيجاز- سيميائيا- تلهّفه على الزيارة؛ فتناغَم سرعة الانطلاق مع تكثيف وصْف هذا العنصر/ عنصر البداية، فلم يشأ أن يُسهب فيه، تاركًا المساحة الكبرى، للجسر/ العبور، ثم هدف الوصول / الرحلة المقدسة؛ وذلك أن السيميائية/ علم العلامات هي "إحدى علوم اللغة التي تدرس الإشارات أو العلامات وفق نظام منهجي خاص، يبرز ويحدد الإشارة أو العلامة اللغوية أو التصويرية في النصوص

---

(١) ينظر: الرحلة في الأدب العربي، د. شعيب حَليفي، ص ٣١٩: ٣٢٣، الهيئة العامة لقصور الثقافة، أبريل، ٢٠٠٢م.

(٢) منسوب إلى قرية "الجابية" في "الجولان". رحلتي إلى بيت المقدس، هامش ص٣٥.

(٣) السابق، ص٣٥، ٣٦.

(٤) ينظر: الرحلة في الأدب العربي، د. شعيب حليفي، ص٣١٩.

الأدبية"[1] .

وقد جعل في عتبة المطلع عنوانًا ظاهرًا سمّاه (بداية الرحلة)، إيذانًا بشروعه في الحكي، وغالبًا ما يتعمد الكاتب" تقديم حد أدنى من الإشارات الجغرافية التي تشكل – فقط – نقطة انطلاق من أجل تحريك خيال القارئ"[2]، وتشويقه لما تحت هذا العنوان من تفاصيل مكانية وزمانية، وما فيهما من أحداث وأشخاص .

ثانيًا: الأماكن الوسيطة / الجسر

تم انتقال الكاتب –سريعًا– من وصف مكان الانطلاق، إلى وصف فضاء السَّير، من وسائل نقل، وطرق، وبلاد تم المرور عليها، ومحطات الاستراحة، يقول: "**ثم ركبنا (الوابور) الحجازي، وطار بنا يجوب قرى "حوران"[3] إلى أن بلغ منتهاها، ثم السهل بعدها إلى الزرقاء، ثم الى محطة "عمّان"، فوقف هناك قبيل الغروب**"[4].

وهو بذلك يتنقل في حكْيه من المكان الأليف/ المكان الأصل إلى أماكن أخرى مليئة بالترقب والاندهاش، مسجلًا فيها انطباعاته ومشاهداته في طريقه نحو الهدف .

ويظهر في خطاب الكاتب الحكائي أكثرُ من وصف لأماكن العبور، فقد أسهبَ كثيرا في ذِكْر تفاصيلها، أشخاصها وزمانها وأماكنها...، "وتُحقّق هذه النقاط للنص مزيداً من الثراء في الحكايات والصُّور"[5] .

فقد عنون لكثيرٍ من هذه الأماكن بعناوين فرعية دالة عليها، مثل: (**في عمّان، السلط، وادي شعيب، أريحا...**)، حتى وصوله إلى الهدف، والذي كان عنوانه (**في بيت المقدس**)، وهو البُغية من الرحلة، كما نصّ هو على ذلك أكثر من مَرّةٍ في ثنايا نصِّه .

ثالثًا: المكان الهدف

---

(١) قاموس مصطلحات النقد الأدبي المعاصر، د. سمير حجازي، ص١٢٠، دار الآفاق العربية، ط. ١، ٢٠٠١م .

(٢) بنية النص السردي، ص ٥٣.

(٣) جنوب دمشق، وهي ما تعرف الأن بمحافظتي "درعا" و"السويداء". ينظر: رحلتي إلى بيت المقدس، ص٣٦.

(٤) السابق ص٣٨.

(٥) ينظر: الرحلة في الأدب العربي، ص٣٢١.

وهذا ما اتسعت فيه دائرة الوصف، لبيان مدى أهمية الرحلة ككل، وبيان قُدسية المكان الذي شَدَّ إليه الرحال، "إنه الإطار العام الذي تتحقق في رغبة الرحّالة، كما يكشف مدى تحقيق الإنجاز الذي حدده الراوي / الرحالة [١]، ومن ذلك قوله: "ثم دخلنا المدينة/ القدس من باب "الأسباط"[٢]... فأنزلنا المكاري في خانٍ هناك، وبعد أن وضعنا أمتعتنا في حجرةٍ فيه؛ أتينا إلى الحَرم الشريف..." [٣] .

والمتأمل يجد أن الكاتب قد سخّر كل إمكاناته؛ لإبراز قيمة المُقدّس في هذا العنصر، فظلَّ خطاب الحكْي مشدوداً؛ ليشارك المتلقي أشواق الكاتب وتعلّق جَنانه بنقطة الهدف .

حتى إنه عندما غادرها إلى اكتشاف أماكن أخرى في مدن مجاورة لمدينة "القدس"، لا يفتأ إلا أن ينقلب إليها على عَجَل، وهو ما يسمى بحركة المكان الارتدادية، حيث "الانطلاق من نقطة مكانية والعودة إليها مرة ثانية"[٤].

ومن دلائل ذلك: هذا العنوان الفرعي "**العودة الى بيت المقدس**"، وذلك بعد زيارته لمدينة "الخليل"-عليه السلام-لأن بيت المقدس- حمَاه الله- محور الزيارة الانطلاق منه والعودة اليه، وهذا الذهاب والإياب لا يمثل فعلًا مجرّداً، بل متصلٌ بقيمٍ رُوحية وتاريخية وثقافية، وهذا الفعل/ الذهاب والعودة يدل- فيما يدل- على التوقير والتعظيم، من خلال الاهتمام بتفاصيل ما فيه، وما حوله؛ بيْد أن الله قد بارَك حَوْله.

أنواع الفضاء المكاني ودلالته في رحلة القاسمي المقدسي :

الفضاء المكاني- كما ذُكر-هو المدى الذي تتحرك فيه الأحداث، "ومن صفاته أنه

---

(١) السابق ، ص ٣٢٣، ٣٢٤ .

(٢) أحد أبواب المدينة، وليس المقصود به "باب الأسباط" الموجود بالمسجد الأقصى. ينظر: رحلتي إلى بيت المقدس، هامش ص٥٣.

(٣) رحلتي إلى بيت المقدس، ص٥٣.

(٤) استراتيجية المكان، د. مصطفى الضبع، ص٩٨، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ٢٠١٨م.

متناهٍ، غير أنه يحاكي موضوعًا لا متناهيا"[1]، وتنقسم هذه الفضاءات أقساماً ثنائية متقابلة، منها: المفتوح والمغلق، والمركزي والهامشي، والمحصور والشاسع، والجوفي والهوائي، والثابت والمتحرك، والطَبَعي والصناعي، والأليف والغريب، والصديق والمُعادِي، وأبرزها في هذه المدونة: ثنائية الانغلاق والانفتاح؛ لما لها من اتصالٍ وثيقٍ بالفضاء المكاني .

الفضاء المفتوح

احتوت رحلة "القاسمي" على فضاءاتٍ مكانيةٍ متنوّعة، لكن هناك بعض أمكنةٍ مهيمنةٍ على بنْية الحكْي، ومن هذه الفضاءات: (**الطُّرق، محطات القطار، القرى، الوديان، الجبال، الأنهار، الأسواق**)، ولا يخفى ما لها من دلالات على ذاتية الكاتب تارة، وعلى طبيعة الرحلة تارة أخرى، وهو بهذا يسير على سَنَن الرحالة الذين وَثَّقوا هذه الفضاءات المهمة في خطابهم الرِّحلي، ومن خلال هذا النموذج يمكن تحديد بعض الأفضية التي تتحلّى بالاتساع والانفتاح:

يقول القاسمي:" **ثم عَزَمْنا على السّير...إلى الأرض المُقدّسة؛ فخرج لوداعنا ... في طرف الوادي جمعٌ من الأصحاب...، حتى قطعنا حدائق "السلط" البديعة، في منفرج تلك الجبال المخصبة، المتخلل بينها عيون عذبة جارية...، ثم تخللنا مسالك بين جبال، فصرنا تارة في انخفاض، وآونة في انحدار، وسلكنا في وادٍ يقال له "وادي شعيب"** [2] **إلى أن أنخنا على حافة نهر ذلك الوادي قبيل العشاء...**" [3] .

إن المتأمل في الفقرة السابقة يجد أن الكاتب مُغرَمٌ بهذا الفضاء الرّحب الذي تراه عينُه، ولذا كانت تفاصيل الحكي دقيقة، وكأنه لا يريد التوقف عن وصف هذه الأماكن التي سيطرتْ على وجدانه؛ فلم يجد بُدًّا من البوح بسِحْرها الأخّاذ، فذكر(**حدائق السلط،**

---

(١) مشكلة المكان الفني، يوري لوتمان، وسيزا قاسم، ضمن كتاب "جماليات المكان" لمجموعة من الباحثين، ص ٦٨، دار قرطبة ، المغرب، ط. ٢، ١٩٨٨م .

(٢) وادي شعيب، قرية أردنية، بالقرب من مدينة السلط، وفيها ضريح نبي الله "شعيب"، عليه السلام. ص١٤٨. أطلس مدن الأردن ، نضال البزم، دار عالم الثقافة ، ٢٠١١م .

(٣) رحلتي إلى بيت المَقْدِس، ص٥٠.

الجبال، وادي شعيب، العيون الجارية، حافة النهر...) .

وربما كانت مثل هذه الأماكن مفجِّرة لطاقات الإبداع، سواء أكانت في هذه الرحلة أم في غيرها؛ فالمكان هو "الجغرافية الخلّاقة في العمل الفني، ويصبح جزءاً من الحدث، ووسيلةً فاعلة فيه"(١) .

كما يظهر-أيضًا- الفصل بين الأماكن ذات الطابع الخاص، كما بين العلُو والانخفاض، والبر والبحر، والسير والتوقُّف ....، وهذا واضح في ثنائياته التي عقدها في فقرته السابقة، "فلا يخلو اختيار الأماكن من رغبة في المقارنة ... وهو أمر شائق، وبخاصة عندما تكون الأماكن مختلفة والأزمان متباعدة""(٢)، كما تكون دالة على ما اعترى الكاتب من مشقّة، وإن كانت محببة لنفْسه؛ لهدف سامٍ يبتغيه.

وهذا ما حاول "باشلار" في حديثه عن جماليات الأماكن، والنظر إليها من الجانب الوجداني، و"البحث في القيمة الإنسانية لأنواع المكان الذي يمكننا الإمساك به، ... أي المكان الذي نحب"(٣)، ونتعلق به ، لأسباب تختلف من شخصٍ لآخر.

الفضاء المُغلق .

من المعلوم أن الهدف من الرحلة هو زيارة مدينة "القدس"، وحَرَمها الشريف، وما قبلها وما بعدها وسائل، أو أهدافٌ صغرى تصاحب الهدف الكبير.

وفضاء أي مدينة-عمومًا- منفتحٌ على أماكن ومعالم عدة، فهي الحاضنة للعنصر البشري بكل متطلباته، وفي مدينة "القدس الشريف" تبرز الفضاءات المتنوعة التي تبدت في"رحلة القاسمي"، وأكثرها فضاءات مغلقة، سلّط الكاتب الضوء عليها.

وأبرز الأماكن يكون-بالطبع- "الحرم الشريف"، و"الصخرة الشريفة"، وإن كانت هذه الأماكن مغلقة واقعيا، إلا أنها منفتحة-معنويا-على القاصدين، بروحانيتها وقدسيتها وبركتها، وقد يكون "الفضاء منفتحاً من خلال الوعي الجمعي، ولكنه منغلق

---

(١) الرواية والمكان، ياسين النصير، ص ١٧، ١٨، وزارة الثقافة والإعلام ، العراق ، ١٩٨٦م .

(٢) ينظر: التراث السردي، د. محمد عبد الباسط عيد، ص ٣٩، مكتبة الآداب، القاهرة، ط.١، ٢٠١٥م.

(٣) ينظر: جماليات المكان، غاستون باشلار، ص٣١، ترجمة: غالب هالسا، المؤسسة الجامعية للنشر والتوزيع ، بيروت ، ط .٢، ١٩٨٤م .

لما يعكسه على الشخصيات من شعور بالوحدة والاختناق" [١] .

وكذلك "المكتبة الخالدية" التي حرص الكاتب على زيارتها والمكوث فيها، يقول: "وفي أثناء ترددي على المكتبة "الخالدية" طَلب مني أربابها الكرام أبياتًا يأثرونها في دفاترهم..."[٢].

ولم ينس زيارة "كنيسة القيامة"- وفيها دلالة على سماحته ونظرته إلى الآخر نظرة قسط وبرٍّ- وبعدها "الخانقاه الصلاحية"[٣]، يقول: "سار بنا رفيقُنا إلى "كنيسة القيامة" الشهيرة، فتقدّمنا أحدُ بوابيها المسلمين، وأرانا جهاتها العُلوية والسُّفلية، موضعًا موضعًا، ثم انعطف بنا -رفيقُنا- إلى "الخانقاة الصلاحية" وصعدنا إليها، واحتفل بنا قيِّمُها وجلسنا ثمّة برهة ..."[٤]، وفي هذه الفقرة دلالات وإشارات دينية واجتماعية...، فغير خاف "أن هناك ارتباطات بين المكان/ الجغرافيا، والتاريخ والاجتماع "[٥] .

وقد نجح الكاتب في إضفاء بُعدٍ اجتماعي على فضاءاته المكانية المغلقة، الذي جعل منها "مساحات بشرية محددة بسمات اجتماعية لها ملامحها المميزة"[٦]، ويوحي ارتياد هذه الأماكن وذِكْرها وإيثارها بالوصف: باهتمامات الكاتب، وطبيعة شخصيته ومنهجه، وهذه العلامات الدالة – وما تحمله من مضامين يبتغيها النص-تكون مساعداً ومُوجِّهًا في تأويل النص وتحليله .

ويظهر-من خلال ما سبق- أهمية الفضاء المكاني في تشكيل هذا النص وإثراء

---

(١) ينظر: الفضاء الجغرافي والفضاء النصي في رواية "شرق المتوسط"، لـــــــ"عبد الرحمن منيف"، أ. وفاء غالية، مجلة آفاق علمية، المركز الجامعي لتامنغست، الجزائر، عدد: ١٢، ديسمبر، ٢٠١٦م، ص ١٦.

(٢) رحلتي إلى بيت المقدس، ص٧٣.

(٣) تقع بالقرب من المسجد الأقصى، وهي وقف الملك الناصر صلاح الدين على الصوفية . ينظر: الأنس الجليل بتاريخ القدس والخليل، مجير الدين الحنبلي، تحقيق: محمود الكعابنة، ج٢، ص٩٩، مكتبة دنديس، الأردن، ط. ١، ١٩٩٩م .

(٤) السابق، ص٨٠.

(٥) ينظر: الرحلة في الأدب العربي، د. شعيب حليفي، ص ٣٢٨.

(٦) ينظر: استراتيجية المكان، د. مصطفى الضبع ، ص ٨٩.

مضمونه، وبناء هُويَّته، فضلًا عن الثراء المعرفي في تبيان معالم لكثيرٍ من البلدان، والطرق المؤدية إليها، ووسائل النقل فيها، وبعضاً من خصائص أشخاصها الاجتماعية والنفسية .

ثانيًا: الفضاء الزماني

لا يخلو أي عملٍ حكائي من عنصر الزمن، فلابد أن تكون الأحداث في زمانٍ ومكانٍ محددين؛ إذ إن "الزمن قارّ في المكان، ويشكلان -معا -البساطة والتلقائية في تحديد مواقفنا ومداركنا الحياتية"(١)، وكان "القاسمي" حريصاً على تصوير الأماكن والمشاهد، وحركته وسكونه، وذهابه وإيابه، في أوقاتٍ محددة معلنة؛ ليكوِّن فضاءً زمنيًا ، له دلالات، دينية وتاريخية واجتماعية وشخصية .

اشتغال الفضاء الزمني

ثمة مظاهر جعلتْ لعنصر الزمن وجودَه البارز، فحدَّد إطارَ الرحلة؛ ليتابع القارئ تفاصيلها والتتابع الزمني لخطِّ سيْرها، ومن مظاهر ذلك :

١- **توثيق الأحداث بتواريخ مُحدَّدة**، ومن ذلك: ذِكره تاريخ انطلاق رحلته باليوم والشهر والسنة، فقد نصَّ- في أول فقرة من فقرات رحلته على أنها كانت في أواخر شهر "المحرم"، عام (١٣٢١ه)، وبالتحديد، صباح الأحد، التاسع والعشرين من شهر الله المُحرَّم.

وعندما دخل "بيت المقدس" آثر أن يُحدِّد هذا اليوم ؛ وهو ما يبيِّن أثرَ ذلك في نفْسه، يقول: "**ثم دخلنا المدينة من باب "الأسباط"، ضحوة الثلاثاء في ٢٢ من صفر الخير الموافق لخمس من "آيار" ...**" (٢) .

وقد حدّد -أيضًا- توقيت زيارته إلى "طورزيتا"، بقوله: "**ثم في صباح الاثنين ٢٨ صفر ذهب بي أحدُ الأحباب المقدسيين إلى "طورزيتا** "(٣).

هذه المحددات تبيِّن مدى عناية الكاتب بالمحددات الزمنية، لأن الزمن وهميٌّ غير محسوس، "ومظهر نفسي لا مادي ويتجسد الوعي به من خلال ما يتسلط عليه بتأثيره

---

(١) السابق، ص ٨٣.

(٢) رحلتي إلى بيت المقدس، ص٥٣.

(٣)"طور زيتا": اسم جبل الزيتون"، يقع شرق مدينة "القدس"، تاريخه متصل بها كل الاتصال، فهو لها بمثابة الروح من الجسد. ينظر السابق، هامش ص ٨٠ .

الخفي غير الظاهر؛ فهو وعي خفي، لكنه متسلط" [1].

وكان اهتمام الكاتب بهذا العنصر؛ ليجعل القارئ على بينةٍ من الأحداث، بإطارها المكاني والزماني، كما يوحي بالأهمية التي يوليها للوقت وإشغاله فيما ينفع، فضلًا عن إبراز السمت الدِّيني؛ وهو الالتزام بالصلاة في وقتها المُحدَّد، وكان- لخوفه ضياع الوقت- يجْمع- في بعض الأحيان- بين الصلاتين؛ إعمالًا بالرّخصة؛ فضلًا عن تعزيز واقعية الحكْي.

٢- كما جَعل من أوقات الصلاة بداية للأحداث أو لنهايتها، فقد كان كثيراً ما يبدأ الحدَث- أو يفصل بينه وبين أحداث أخرى- بصلاة فريضة أو نافلة.

يقول في صدر نَصِّه الرِّحلي وانطلاقته البرية الأُولى: "ثم تحرك بنا (القطار)، ولم يزل يجوب تلك البلاد الحوارنية المخصبة الموبقة،... وبعد أداء فريضة "الظهر" مقصورة مجموعة مع "العصر" ...، تجوَّلنا في أرجاء أخبية التجار؛ ريثما يسافر "الوابور" الحجازي إلى "عمّان"، وبعد العصر تحرك "الوابور" المذكور، وسار إلى "درعا" فوصلنا قرب المغرب" [2].

وتُظهر هذه الفقرة تلك الحركة المتنامية بين الأوقات المختلفة، والتداخل القائم بين المكان والزمان؛ فيشعر المتلقي بتتابع حركة الزمن واستمراره، دون أن يَلحظ انقطاعه أو توقّفه.

٣- وكان للزمن الطبيعي دورٌ في تحديد النص وتنظيمه، مثل (طلوع الشمس، قبيل الغروب وبعده)؛ كي يربط الأحداث بما يشهده الناس في الواقع، كقوله: "خرجنا من دارنا طلوع الشمس"، وفي موضع آخَر: يقول "وصلنا إلى محطة "عمّان" قبيل الغروب"[3]؛ وذلك اتساقًا مع التجربة، وتفاعلًا مع الزمن، وتقديم صورة مستمرة للحركة بين الأماكن

---

(١) ينظر: في نظرية الرواية .. بحوث في تقنيات السرد، د. عبد الملك مرتاض، ص ١٧٣، عالم المعرفة، ديسمبر، ١٩٩٨م .

(٢) رحلتي إلى بيت المقدس، ص٣٦، ٣٧ . و"عمَّان": عاصمة المملكة الأردنية الهاشمية حاليًا، وكانت تسمى قديمًا "قصبة بني عمون"، ولكنها عرفت بعد الفتح الإسلامي بهذا الاسم. ينظر: تاريخ العرب قبل الإسلام، د. جواد علي، ج٨، ص ٧٤، دار الساقي، ط. ٤، ٢٠٠١م.

(٣) السابق، ص ٣٨.

التي يتنقلون فيها .

وتيرة الزمن السردي للأحداث

بالتأمل في نَصِّ هذه الرحلة؛ يظهر أنها التزمت بخطٍّ زمني متتابِع، من "عمّان"، إلى "أريحا" إلى "بيت المقدس"، ثم "الخليل"، حتى عودته إلى "بيت المقدس"، ثم "يافا"، وبعد ذلك العودة إلى "دمشق"، وكان هذا في تسلسلٍ وتدفُّق.

وكان سرده للأحداث متفقًا -غالبًا- مع الزمن التاريخي الواقعي للرحلة؛ فإن السرد عمومًا يتخذ أنماطًا عدة؛ فإما" أن يكون زمنُ السرد أكبرَ من زمن الأحداث التاريخية، أو أقلّ منها، أو مساويًا لها"[١].

وكان هذا التوافق -بين المستويين التاريخي ومستوى زمن السرد- في سلسلة متوالية؛ فتبدأ الفقرة اللاحقة بما انتهتْ به السابقة، وهكذا؛ تناغمًا مع رؤية الكاتب، وطبيعة العمل، وهذا ما يسمى بـــــــــــــــ"المَشهد"(scene)، والذي يعني: "تساوي الزمن بين الحكاية والقصة تحقيقًا عرفيا"[٢] .

ولا يُعدم وجود استباقٍ(anticipation) واسترجاعٍ (analepsis) في بعض الأحيان؛ بهدف التنوع في عرضه للأحداث، وتوافقًا مع بعض المتغيرات التي تطرأ عليه في وقت الكتابة / عملية التذكر.

ومن "الاسترجاع" الذي جاء بشكلٍ عَفوي، استدعاء الكاتب أحداثًا سابقة، كما في إحالة قارئه على بعض من المصادر التاريخية والجغرافية؛ وهو ما يشير إلى أنه قد سبق له الاطلاع عليها، كـــــــ"أُنس الجليل، و"الرّوضتين"[٣]، يقول: "**ولسهولة الوقوف**

---

(١) الراوي والنص القصصي، د. عبد الرحيم الكردي، ص ١٦٢، مكتبة الآداب- القاهرة، ط.١، ٢٠٠٦م.

(٢) خطاب الحكاية.بحث في المنهج، جيرار جنيت، ص ١٠٨، المجلس الأعلى للثقافة، ط. ٢، ١٩٩٧م.

(٣) "الأُنس الجليل بتاريخ القدس والخليل"، للقاضي مجير الدين الحنبلي (ت٩٢٨هـ)، وكتاب "الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية" ، لأبو القاسم الدمشقي، المعروف بأبي شامة (ت ٦٦٥ هـ) .

على هذه الكتب بواسطة طبعها وانتشارها؛ اكتفينا بالإحالة إليها" [١] .

ومما يُلمح من "الاستباق":إلحاحه كثيراً على رغبته في زيارة أكثر من موضع، والحنين إلى تكرار الزيارة مرة أخرى، ونيّته مغادرة بعض الأماكن؛ للانتقال إلى أخرى، كانطلاقته من "بيت المقدس" إلى" يافا"، يقول:"... ثم في صباح السبت، الثالث من ربيع الأول، عزمنا على مبارحة البيت المُقدَّس" [٢]، ولا يخفى أن هذه الأُطر الزمانية تعزز من جمالية النص، وتبين مدى غناء هذه الرحلة بالتفاصيل التي حرص الكاتب أن يجعل قارئه على اطلاع بها .

ومن التقنيات التي تضاف إلى "المشهد" و"الاستباق" و"الاسترجاع": الحذف والمُجمل[٣]؛ فلهما دورٌ- كذلك- في مستوى السرد الزمني، فلم يكن غرض الكاتب الإكثار من الحشو الذي لا يفيد، فيظهر "الحذف" في قوله: " وأضربت صفحًا عن تاريخ البلاد التي مررتُ عليها وذِكْر جغرافيتها، وحالها قديمًا وحديثًا؛ خشية الطُّول"[٤]، وهذا الحذف أسرَعَ من وتيرة السرد،؛ لتكون المساحة الأكبر لما يراه الكاتب جديراً بالاستطراد والوقوف عنده وسرد تفاصيله .

ومن نماذج "المُجمل" وتلخيص الأحداث في جُملٍ قصيرةٍ متجاوِزةٍ لأحداثها الكبيرة: ما قاله عن بعض الأصحاب الذين استقبلوه في إيناس وإكرام: "وسررنا بمحاوراته العلمية، ومطارحته الأدبية وأطْلَعنا على جُملةٍ من تأليفاته اللطيفة، وشعره الفائق"[٥]، فلم يشأ الكاتب إخبار القارئ بأسماء هذه التصانيف، ولا القصائد أو الدواوين التي لصاحبِه؛ لأنه لم يستهدف ذلك.

وكان كثيراً ما يقطع "القاسمي" حركة السرد الزمنية، لأمرٍ يراه مهمًّا، وهو ما يطلق عليه ــ"الوقفة"(PAUSE)، التي تعني "تعطيل السرد وإبطاء وتيرته"[٦]، وعندها

---

(١) رحلتي إلى بيت المقدس، ص٨٨.

(٢) السابق، ص ٩٧.

(٣) ينظر: خطاب الحكاية، ص ١٠٩: ١١٩.

(٤) رحلتي إلى بيت المقدس، ص٨٧، ٨٨.

(٥) السابق، ص١٠٠.

(٦) ينظر: بنية الشكل الروائي، د. حسن بحراوي ، ص ١٦٥.

يراوح الزمن مكانه، حتى انتهاء الاستراحة التي قد تكون مطلوبة للمرسِل والمستقبِل في آن واحد ، وبعده يعود من حيث كانت وقفته، وهذا كثيرٌ في رحلة "القاسمي" المقدسية .

فعندما وصف كيفية سيرهم إلى عمَّان، وحدَّد زمان وصولهم، ومَن خرج لاستقبالهم، وتنزههم وتجوالهم : توقَّف؛ ليكتب نبذة عن تاريخ "عمّان"، وما قيل عنها من أخبار، وما نُظِم فيها من أشعار، مستدلًا في كثير من الأحيان بما كتبه عنها صاحب "معجم "البلدان"[1].

وبهذا يتناغم الفضاء المكاني والفضاء الزماني؛ للإسهام في تشكيل النص من الناحية الجغرافية والتاريخية ؛ مما يتيح الفرصة للقارئ على التعرّف على هذه الأماكن بما اتسمتْ به من خصائص رُوحية وحضارية وثقافية...، ويكون دورٌ اللغة بدلالاتها، والفضاء النص بإشاراته وعلاماته- أهمية في التعبير الصادق عن التجربة بشمولها وواقعيتها، كما سيأتي في المبحثين الآتيين .

---

(١) رحلتي إلى بيت المقدس، ص٣٨، ٣٩.

المبحث الثاني

الفضاء النصي

يُعد الفضاء النصي(Textual Space) من أكثر الفضاءات توجيهًا للمتلقي، فبه يعرف–للوهلة الأولى–ما ينطوي عليه النص الأدبي المكتوب، وذلك من خلال العنوان، وما يحتويه من رسومٍ وخطوط، حيث إن الفضاء النصي هو "الحيز الذي تشغله الكتابة الإبداعية ذاتها– بحسبها أحرفًا طباعية–على مساحة من الأوراق، ويشمل ذلك طرائق تصميم الغلاف، وتشكيل العناوين، ووضْع المطالع، وتنظيم الفصول، وغيرها"(١) .

والفضاء النصي–بهذا الاتساع – مفهومٌ إجرائيٌ مهمُ لسبر أغوار النص، وتنبع أهيمته– الأولية أيضًا– في كونه سابقًا للفضاء الروائي ...، فهو الذي يبدأ منه المتلقي تشكيل هذا الفضاء، معتمداً على مجموعة من الإشارات الضمنية التي يقدمها المؤلف"(٢) .

وقد عُني النقد الغربي بهذه المقاربات، في محاولة لتأويل النصوص وقراءتها؛ بغية الوصول إلى فلسفة العمل وغاياته، من خلال" ما يُسمى بـــــ"المتعاليات النصية"– حسب تعبير "جيرار جينيت"(Gerard Genette)(٣)– "فموضوع الشاعرية عنده هو جامِع النص، أو الجامعية النصِّية للنص"(٤)، أي كل ما يحيط به، رأسيًا وأفقيًا، من خلال الشكل والمحتوى، شكلًا: كالغلاف والرسوم وما إليهما، أو ما هو داخل المتن، كالعنوان الرئيسة والفرعية والإهداء، والتقديم، والتقريظ، أو المطلع الرئيس للرحلة، أو مطالع الفقرات، والخاتمة، وهو يعرف بـــــــــ" الملحق النصي المتفرع عن التعدية النصية،

---

(١) ينظر: بنية النص السردي، ص ٥٥.

(٢) استراتيجية المكان، د. مصطفى الضبع ، ص ٥٥.

(٣) ناقد فرنسي ولد في باريس عام ١٩٣٠م، أحد مُنظري الادب المختصين في نظرية العلامات والدراسات النصية والسردية، له عدة مؤلفات نقدية منها: (مدخل لجامع النص، وعتبات، وطروس،...)، توفي عام ٢٠١٨م . ينظر: خمسون مفكرًا أساسيًا معاصرًا.. من البنيوية إلى ما بعد الحداثة، ص ١٢٩، وما بعدها.

(٤) مقدمة كتاب "مدخل لجامع النص"، جيرار جينيت، ص٥، ترجمة: عبد الرحمن أيوب، دار الشئون الثقافية العامة، بغداد – دار توبقال للنشر، د. ت.

وغيرها من الإشارات الكماليَّة التي أشار إليها "جيرار جينيت" في بحثه طروس ..الأدب على الأدب- وهو المسمى عنده-أيضًا- بالمناص، والذي عد منه-إضافة إلى ما سبق- نوع الغلاف والرسوم والتصميم، وكل ما يسبق إنتاج النص من مسوَّداتٍ وتصاميمَ وغيرها"[١].

ومنها- كذلك-التداخل بين الأجناس الأدبية كالنثر والشعر، أو التداخل النوْعي بين الجِنْس الواحد، ومنه ما يُسمى تناص الفراغ، أو تناص التصحيف، أو تناص السَّواد والبياض.

وسأحاول الوقوف مع رحلة "القاسمي"؛ لبيان بعض مظاهر الفضاء النصي وشيءٍ من دلالاته.

أولًا: العنوان

العنوان هو عتبة العمل الإبداعي الرئيس، وله دورٌ أوليٌّ في استكشاف النص، ولذا فهو العتبة الأَهم في النصوص المُوازية و"الكنز الثمين، بل هو بمثابة الرأس للجسد، وذلك إن صحّت المشابهة "[٢].

ومن أجل هذا يُعنى به كثيرٌ من المبدعين؛ فهو أول ما تقع عليه عين القارئ، لعُلوِّه وبروزه وتميّز خَطِّه-غالبًا- ومن أجل توجيه المتلقي/ العادي أو الواعي، نحو النص، واستكناه مضامينه.

وكثيرًا ما اهتم به أنصارُ السيميائية؛ "باعتباره علامة إجرائية ناجعة في مقاربة النص؛ بهدف استقرائه وتأويله"[٣]، فقد أطلقوا عليه "عِلم العنونة" الذي يُعنى بالنصوص التي تَظهر على رأس النص؛ لتدل عليه وتُعيِّنه، وتشير لمحتواه الكُلّي؛ ولتجذب جمهوره المستهدف"[٤].

وبالتأمل في العنوان(رحلتي إلى بيت المقدس) يُلحظ أنها بدأت باسمٍ مضاف إلى ضمير المتكلم، ليُعلَم أنه نصٌّ توثيقيٌّ لرحلة ذاتية، وليست إملاءً أو رواية عن رحّالة

---

(١) ينظر: طروس، ص ١٣٥ .

(٢) ينظر: دينامية النص.. تنظير وإنجاز، د. محمد مفتاح، ص ٧٢، المركز الثقافي العربي، ١٩٩٠م.

(٣) سباق العقبان والنسور- تحليل سيميائي، عطية العمري، مجلة علامات،٢٩،أبريل، ٢٠٠٨م، ص١٣٨.

(٤) عتبات جيرار جينيت.. من النص إلى المناص، عبد الخالق بلعابد، ص٦٧. الدار العربية للعلوم ناشرون، بيروت، ودار الاختلاف -الجزائر، ط.١، ١٤٢٩هـ- ٢٠٠٨م.

آخَر، ثم حدَّد فيها الهدف وهو "بيت المقدس"؛ ليُضفي على العنوان الملمحَ الديني الذي له في الوعي الجمعي قُدسيةٌ وتعظيم، فضلًا عن تحديد النوع الأدبي الذي ينضوي تحته النص، وهو "الأدب الرِّحلي"؛ فيضيء للقارئ طريق التلقي.

حيث إن العنوان يتم النظر إليه "كبنية لها اشتغالها الدلائلي كوظيفة أولية، ثم تتجه إلى العمل لتشتبك مع دلائليته، دافعة ومحفزة إنتاجيتها الخاصة بها"[١] في مرحلة تالية، فالعنوان، هو "المكان الذي يلتقي فيه المتلقي مع المؤلف على مائدة النص"[٢]؛ بغية تأويله، وفكّ رموزه، ولا تكون إلا من قارئٍ بالرموز خبير.

العناوين الداخلية

حرص "القاسمي" على إضاءة خطابه بعنوانات داخلية، تقسِّم رحلته: البداية، والأماكن الوسيطة، وبعض الشخصيات التي قابلها، فآثرها بعنوان خاص، بأن جعل العنوان الفرعي ممهداً لمرحلة تالية من رحلته، كي يكون القارئ مشاركًا له في رحلته، فضلًا عن أنها تُريح عين المتلقي، وتبعد عنه السآمة والملل.

ومن ذلك عنواناته التي أراد لها أن تكون في خَـــــــــطٍّ تصاعديّ: ("بداية الرحلة"، "في عمَّان"، "عودا على بدء"، "وادي شعيب"، "أريحا"، "في بيت المقدس"، "المكتبة الخالدية"، "بدء الرحلة إلى الخليل"، "العودة إلى بيت المقدس"، "المفتي الشاعر"، "العودة") .

والعنوان- بوظائفه التعيينية والإغرائية والإشارية...- له الدورُ الأكبر في الملحقات/ العتبات/ النصوص الموازية جميعها، فهو" بمثابة السؤال الذي تكمن إجابته داخل النص"[٣]، وينسحب ذلك على عتبة الرحلة الرئيسة التي ذُكرتْ آنفا، أو هذه العناوين الداخلية .

وهي نصوصٌ موازيةٌ لا تُقرأ بمعزلٍ عن العنوان الرئيس "رحلتي إلى بيت المقدس"، ولا عن المطالع، ولا عن باقي المتن؛ لأنها صاحبتْ القارئ بعد ولُوجه معالمَ

---

(١) ينظر: العنوان وسميوطيقا الاتصال الأدبي، د. محمد فكري الجزار، ص ٨، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٩٨م .

(٢)استراتيجية المكان، د. مصطفى الضبع، ص ٥٥ .

(٣) ينظر: السيموطيقا والعنونة، د. جميل حمداوي، مجلة: عالَم الفكر، عدد: ٣، يناير، ١٩٩٧م، ص ١٠٨.

النصّ، وهي بذلك-الدور المحوري الهادف- تكون "مفتاحًا تأويليًا يسعى إلى ربط القارئ بنسيج النص الداخلي والخارجي"[١]، فيزيد من معايير تماسك النص ووَحْدته .

مقدمة الرحلة

تعد المقدمات مفتاحًا مُهمًّا تنضاف إلى النصوص الموازية التي توجِّه القارئ، وهذا، "الاعتبار الافتتاحي والتصديري-الذي تَمْلكه المقدمة- يمنحها سُلطة توجيه القراءة "[٢] إلى حيث يريد مُنشئ الخطاب.

وقد قَدَّم "القاسمي" لرحلته، بتقديمٍ إغرائي تعييني، كاشفًا فيه عن نُبْلِ هدفه، وعِظَمِ مَطْلوبِه، فهي رحلةٌ إلى أرض مباركة، وربما أراد أن بهذا الاستهلال ما قصده "ابن قتيبة" (ت٢٧٦ه) في براعة الاستهلال -بتقنياتٍ وأساليبَ متنوعة- بأن: "...يُميل نحوه القلوب، ويصرف إليه الوجوه، وليَستدعي به إصغاءَ الأسماع إليه"[٣].

فيبدأ بقوله: "**لم أزل كثير التشوّق لزيارة هذه الأماكن المبارَكة، منتظرًا الفرصة حتى حانت؛ فشددنا لها ساعد الهمّة، وقد أبرزناها من القول إلى الفعل...**"[٤] .

وبهذه الأسطر القليلة المفعَمة بالتكثيف والتركيز- والتي تعد من المتعاليات النصية- قد أَعلن عن القصْدية، والنوع الأدبي لنصِّه؛ فتفعّل-على إثر هذا- دائرة التلقي الإيجابي للنص الآني، بعد أن توفرت له عناصرها ومظاهرها .

إن العلاقة القائمة بين العنوان الرئيس والعناوين الفرعية، والمقدمة تؤكد التماسك النصي في هذا العمل، حسب رؤية البحث النصي، الذي ينظر إلى النصِّ بوصفه "وحدة كبرى متماسكة الأجزاء"[٥].

---

(١) النص الموازي للرواية.. استراتيجية العنوان"، شعيب حليفي، مجلة الكرمل، فلسطين، عدد ٤٦، أكتوبر – ١٩٩٢م، ص٩٩ .

(٢) ينظر: عتبات النص البنية والدلالة، عبد الفتاح الحجمري، ص٤٠، شركة الرابطة، الدار البيضاء، ط. ١، ١٩٩٦م.

(٣) الشعر والشعراء، لابن قتيبة، ج١، ص٧٤، تحقيق: أحمد محمد شاكر، دار المعارف، القاهرة، ط٢، ١٩٥٨م.

(٤) رحلتي إلى بيت المقدس، ص٣٥.

(٥) ينظر: علم لغة النص.. المفاهيم والاتجاهات، د. سعيد حسن بحيري، الشركة المصرية العالمية للنشر- لونجمان، ط. ١، ١٩٩٧م.

ويؤكد ذلك أن العنوان الفرعي الأول هو (بداية الرحلة)، متمسكًا بالعقد الذي عقده مع القارئ في عتبة العنوان الرئيسة، ولتكون استراتيجية التلقي باعتبار هذا التجنيس؛ وحينئذٍ "تلتقي القصْدية مع التقبُّلية؛ لكشف غايات العمل، والتفاعل مع مضمونه"(١) .

ختام الرحلة

وفي ختام الرحلة يظهر التناص الذاتي، والتداخل بين نصوص الرحلة ذاتها، فإنه عندما كحّل عينُه برؤية "الحَرم الشريف" أول مرّة: انشرح صدرُه، وانتعش فؤادُه، وانهمر دمعُه؛ فرحًا وسرورًا، وفي الوداع انهمر دمعه-أيضًا- لانتهاء وقت الرحلة ، ولم تشبعْ رُوحُه -بعد- من جَمَال الحَرم وإشراقاته وعطاءاته، يقول: "

"...وبعد ارتفاع الشمس ودّعنا حَرمَ الأقصى بركعتيْ السّفر... وابتهلنا إلى المولى-سبحانه وتعالى-في دعواتٍ جَمّة، ومنها: أن يغفر لنا ما فرّطنا من التقصير في مقام هذا المسجد الجليل، ثم خرجنا من روض ذلك "الحَرم الشريف"، ونحن نكفكف الدمع وينهمل"(٢).

وهذا الختام-بما تضمنه من مشاعر صادقة وعاطفة جيّاشة- ساعد على استمرارية النص وتنامِيه؛ حتى باتت النص كلُاًّ متجانسًا، يأخذ بعضُه بزمام بعض .

التداخل الأجناسي والتفاعل النصِّي

ذكرتُ سابقًا في التعريف بـــ"القاسمي" أنه علَّامة موسوعيٌّ، وقد أفاده هذا في توثيقه لرحلته هذه، فانفتح نصه النثري على إبداعه الشِّعري في تفاعل نصيٍّ وتداخل أجناسي، يندرج تحت "تداخل النصوص"/"التناص"/"التعالق النصي"، وغيرها من المسميات المتقارِبة، "وهو شكلٌ من الاشكال التي ذَكَرها "جينيت" تحت باب "النّقل" الذي يُعَد من أكثر الأشكال قُربًا من مفهوم التفاعل الأجناسي"(٣) .

---

(١) ينظر: القصدية في النص الأدبي، مجموعة باحثين، مجلة الرواق، جامعة لندن المفتوحة، عدد١، ٢٠١٥م، ص١٢٢ .

(٢) رحلتي إلى بيت المقدس، ص٩٧، ٩٨.

(٣) ينظر: التفاعل في الأجناس الأدبية، بسمة عروس، ص١٠٣، مؤسسة الانتشار العربي، د. ت .

ففي سياق حديث "القاسمي"عن توديع "الأقصى" و"الحَرمِ الشريف"[1]- والذي سبق ذِكْرُه- تسلَّط عليه من ذاكرته ووعيه نصٌّ شِعريٌ غائبٌ، لكنه ما لبث أن كان جزءاً من النص الحاضر، وهو بيت من قصيدة "البهاء زهير" (ت٦٥٦ه)، وهو قوله: (الطويل)

وَلَمّا قَضى التَوديعُ فينا قَضاءَهُ خرجتُ وَلَكِن لا تَسَل كَيفَ مَخرجي [2]

والقارئ الواعي هو الذي يكشف هذا التقارب السياقي بين النص الغائب والحاضر، فعنوان قصيدة "البهاء" عن وداع الأَحبِّة، وهو السياق ذاته الذي حضر فيه -هنا- بحمولاته المعرفية والنفسية، وفي هذه الحالة تتولَّد عند المتلقي معانٍ جديدة، أو تؤكد ما وَقَر في رُوعه، وهو ما يُسمى" بالإنتاجية"، وتتحقق حينما يتم "الربط بين الكلام الذي يهدف إلى الإخبار المباشر، وبين أنماطٍ عديدة من الألفاظ السابقة عليه أو المتزامنة معه، فالنصُّ- إذن-إنتاجية "[3].

وقد يتداخل نصِّه النثري مع إبداعه الشِّعري، وهذا عندما لا يُسعفه التعبيرُ النثريُّ -مع سَعته- فيلجأ إلى الشِّعر بصُوره ورمزه وتكثيفه وتركيزه...، فعندما زار "المكتبة الخالدية"[4] وفي أثناء حديثه عنها قال: بحر(الرمل)

أيها الزائر بيت المقدس يبتغيه بعد شقّ الأنفُس
احمدُ المولَى بما أَولى إذا ما بدتْ أعلام القُدسِ

---

(١) رحلتي إلى بيت المقدس، ص ٩٨.

(٢) ديوان "البهاء زهير"، ص١٤٥، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، محمد الجبلاوي، دار المعارف، ط. ٢، ١٩٨٢م، ونص البيت كما جاء في الديوان:
وَلَمّا قُضى التَوديعُ فينا قَضاءَهُ رجعتُ وَلَكِن لا تَسَل كَيفَ مَرجعي.

(٣) ينظر: علم النص، جوليا كريستيفا، ترجمة: فريد الزاهي، ص٢١، دار توبقال للنشر، ط٢، ١٩٩٧م.

(٤) المكتبة الخالدية، أعظم دور كتب القدس، تقع في خط باب السلسلة ، عن يمين القاصد إلى الحرم الشريف، ترجع ملكيتها إلى آل الخالدي، جُعلت وقفًا عام ١٩٠٠م، وتحتوى على نحو عشرة آلاف مصنف، وكانت تضم حتى عام ١٩٣٢م سبعة آلاف مخطوط عربي. ينظر: دُور كتب فلسطين ونفائس مخطوطاتها، أسعد طلس، مجلة المجمع العلمي العربي ، ص ٢٣٦، ينظر- أيضًا- تاريخ التراث العربي، فؤاد سزكين، ص١٨٧، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، ١٩٩١م.

وأقمْ في الحَرم الأسمَى على طاعةِ والذِّكر وقت الغَلَس

ثم يقول :

وإذا ما شئتَ تجوالا فسرْ لسنًا مكتبة واقتبس

كتب "آل الخالدي" انعم بها موردًا للفضْل منه فاحْتسي

وعندما ينوع الكاتب بين النظم والنثر فإنه يتناص مع نفْسه تناصًّا ذاتيًّا؛ فضلًا عن اتساع فضاء النص عبر التمطيط والاستطراد .

فضاء الصفحة / البياض والسواد

يشكل توزيع البياض والسواد في الصفحة والخط، وشكله ونوعه مظهراً من مظاهر الفضاء النصّي، أو ما يُسمّى "الفضاء الخطِّي، حيث يكون الاختيارُ فيه اختياراً دالًّا"(١)، وسأحاول الوقوف على دلالاتهما؛ من خلال هذا النموذج المكتوب بخط "القاسمي"، رحمه الله (٢) .

---

(١) ينظر: الشكل والخطاب .. مدخل لتحليل ظاهراتي، محمد الماكري، ص ٢٣٣، المركز الثقافي العربي، ط. ١. ١٩٩١م .

(٢) وهذه آخر ورقة من مخطوط الرحلة ، أوردها محققُ الرحلة وناشرُها ، ص ٣١ .

نموذج آخِرِ ورقة من الرحلة بخط صاحبها القاسمي.

وبالنظر في هذا النموذج يظهر أن الكاتب لم يحفلْ بانتهاء السطر، مع انتهاء كل فقرة؛ ليأخذَ هو وقارئه راحة، وبداية فقرة جديدة، والإيحاء بأن هذه الجزئية المحددة قد انتهت، فيحسُن عندها السكوت؛ "فالفراغ يشير -غالبًا- إلى الصمت، سواءً أكان بين المقاطع أو الفقرات الشعرية، أو داخل الأسطر، أو التفاوت في الاتساع من سطر إلى آخر"[1].

ولم يفد- أيضًا- من علامات الترقيم، التي تقوم مقام النَّبْر والتنوّع الصوتي

(١) ينظر: الشكل والخطاب .. مدخل لتحليل ظاهراتي، محمد الماكري، ص ٢٣٣، المركز الثقافي العربي، ط. ١. ١٩٩١م .

والتفاعل بين الكاتب والمتلقي، فمن خلالها تُنقَل المشاعر والأحاسيس، لأن الكتاب عملٌ صامت، بخلاف الخطاب الشفهي الذي يستطيع المرسِل-من خلاله- تنويعَ صوته والضغط على الحروف؛ من أجل بيان مراده كما هو في داخل نفْسه، فضلًا عن لغة الجسد، التي تعاونه في عميلة التوصيل.

ومن الممكن أن يكون عذره في ذلك، تلك العَجَلة التي كان عليها إبّان التوثيق؛ فقد كان مُرتّبًا أولوياته، ضنينًا بوقته، وجعل أكثرَه للمكوث في الحرم الشريف، ومطالعة الكُتب.

وقد أقر بذلك في قوله: "**ودَعَانا في مدة إقامتنا بعض التجار المياسير، وبعض أهل العلم لداره، والإقامة عنده، فأجبنا الدعوة دون المقام؛ ضنًّا على جوار الحَرم الشّريف**"(١)، وقد تكررت هذه الدعوات أكثر من مرة، وكانت الإجابة مثل إجابته آنفة الذِّكر، وقد وثّق ذلك -كلّه- في رحلته.

ومنها قوله -عندما طُلب منه نظم أبياتٍ في المكتبة الخالدية-:"... **فكتبتُها على عَجَل، واختلستُها رغمًا عن مهماتي في تلك الأوقات...**"(٢).

غير أنه عمد إلى ترك فراغ / بياض بين آخر فقرة في نصه، والجملة الختامية؛ حيث قال: "**وتمت الرحلة أربعين ليلة(فراغ) ، والحمد لله أولًا وآخرا وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم** "(٣). هذا الفراغ كان إشارة إلى انتهاء نصِّ الرحلة ، والانتقال إلى جُملة الختام .

وتأسيسًا على ما سبق فإن عدم احتفاء كاتب هذه الرحلة بالعلاقة بين السواد والبياض، وكذلك عدم اهتمامه بتقسيم النص إلى فقرات، وتجاهله علامات الترقيم التي تفيد في اتساع فضاء النص؛ يرجع إلى عَجَلته، وحرصه على تقييد كل ما رأته عينُه من مآثرَ وأعاجيب، ومساجدَ ومحاريب، معتمدًا على توثيق المحتوى -كما هو دون تحكيك- قبل أن تطوله يدُ النسيان.

غير أنه أفاد من تداخل النصوص، والتويع الأجناسي، والعتبات الخارجية

---

(١) رحلتي إلى بيت المقدس، ص ٦٤ .

(٢) السابق ، ص٧٣.

(٣) رحلتي إلى بيت المقدس، ص ٣١ .

والداخلية، وغيرها من المظاهر التي تعمل على اتساع الفضاء النصي وترابطه؛ مما يساعد على فهم النص وتأويله تأويلًا متفقًا مع مراد الكاتب .

المبحث الثالث

الفضاء الدلالي

الفضاء الدلالي(Semantic Space) من أهم أنواع الفضاء التي يُتسلح به في مقاربة النصوص؛ لسبره أغوارَها، وكشفه- من خلال أبعاده المتنوعة- عن عمق العلاقة بين الدوال والمفاهيم، أو العلاقة بين ما هو لُغوي وغير لغوي، وهذا ما يعنيه "رولان بارت" بقوله: "كل ما في الرواية له دلالة"(١) .

وعندما تقرأ النصوص قراءة سيميائية؛ يكون لها علاقة وثيقة "بالفضاءات المتنوعة كما يحيل عليه الخطاب القصصي، وتكون مهمة القارئ استخراج هذه الدلالات"(٢)، سواء أكانت الدلالة واضحة أم تحتاج إلى تريُّث، وعليه -كذلك- اكتشاف شبكة العلاقات القائمة داخل النص، سواءً أكان منطوقًا بها، أم مسكوتًا عنها .

وفي هذا الفضاء المحوري تظهر رمزية رحلة "القاسمي" المقدسية، في تجاوز بنْية النص السطحية، وتِبيان بنْيته العميقة، والكشف عن هُويته، وإبراز تأملاته الاجتماعية والفكرية، وسياق رحلته، وأبعادها التاريخية والجغرافية والدينية..؛ وذلك من خلال رمزيتها وسياقها وتحليل شخصياتها، ومكونات فضائها الدلالي وأبعاده .

أولًا: رمزية الرحلة وسياقها العام.

لا يخفى أن هذه الرحلة -والتي كانت مطلع القرن العشرين وأواخر العصر العثماني- تحمل قيما وأبعادًا متنوعة، فهي ليست توثيقًا لرحلة لها أبعاد جغرافية، بل- هي بالإضافة إلى ذلك- سيرٌ في أرض الله، تهدف إلى توثيق الأوضاع الدينية والسياسية والثقافية في العالم الإسلامي حينئذٍ، وإظهار صحيح الدين ومنهجه الوسطي المعتدِل، كما هي موضِّحة- في الوقت ذاته- رؤيةَ الكاتب ومذهبَه في الحياة ، وشغَفه بالعلم ومطالعة الكتب، في مزجٍ بين الذاتية والموضوعية، وبين الواقعية التاريخية والرمزية الرُّوحية .

---

(١) استراتيجية المكان، د. مصطفى الضبع ، ص ٥٧.

(٢) معجم السرديات، محمد القاضي وآخرون، ص ٣٠٩.

يقول "القاسمي" تحت عنوان فرعي " **بدء الرحلة إلى الخليل**" :

"ثم في صباح الأربعاء سلخ "صفر"، عقدنا النية على المسير إلى بلدة "الخليل" عليه السلام... وسرنا في الحال من حُجرتنا في "الأقصى" وركبنا العربة من "باب العمود" قُبيل "الظُّهر"، ولا زلنا حتى وصلنا "بيت لحم" فدخلنا المكان المشهور بولادة السيد المسيح "عيسى"-عليه الصلاة والسلام- فيه... وتجوّلنا في أنحاء ذلك المكان، وأحببتُ أن أصلي ركعتين عند محـــــل الـــــولادة؛ اتبـــاعاً لما ورد في قصة "المعراج"[1].

وقد سجَّل في هذا النموذج حرصَه على الإفادة من الرحلة وزيارة أكبر عدد من الأماكن المهمة في مدينة "القدس"، ولم يكن أسيراً للحرم الشريف ،مع حبه له وحرصه على ألا تفوته صلاة فيه قدر الاستطاعة، كما نص هو على ذلك في أكثر من موضع في رحلته هذه.

ويكشف هذا النموذج-أيضًا-بعضًا من انطباعاته الذاتية، وتجربته الرُّوحية، فضلًا عن أنه يعكس تقديراً واحتراماً للأماكن التاريخية المقدسة، سواءً في التراث الإسلامي، أم في المسيحي، مبينًا عن وسطية الإسلام واعتدال مَذْهبه، كما يُدلِّل على اتباعه السُّنة في السَّفر والحَضَر، في قوله:"... **أحببتُ أن أصلي ركعتين عند محل الولادة؛ اتباعًا لما ورد في قصة "المعراج** " .

ويرى المتأمل كيف حشَد في هذا المقطع القصير، عدداً من الرموز الدينية والأماكن المقدسة، والمدن التاريخية، في متواليات سردية رامزة؛ فـــــ"الأقصى" له في الوجدان الإسلامي تعظيم وقدسية، وذكره لزيارته "بيت لحم"- وهي محل ميلاد السيد المسيح- وهو ما يرمز للتسامح الديني والتعايش الحضاري، كما أنه سبق هذه الفقرة بنص عن زيارته إلى "الخانقاه الصلاحية"، واحتفاء قيِّمُها به وبمَن مَعه، وهذا يرمز إلى تشوقه إلى العلم والمعرفة، فضلًا عن أنه تراث تاريخي إسلامي، أسسه القائد "صلاح الدين الأيوبي"(ت ٥٨٩ه)، يقول"... **ثم انحرف بنا رفيقُنا إلى "الخانقاه الصلاحية"، وصعدنا**

---

(١) رحلتي إلى بيت المقدس، ص٨٣، ٨٤.

إليها، واحتفل بنا قيِّمُها، وأرانا غرَفها وطباقَها العُلوية"[١] .

وهذه المعاني العميقة تجعل من هذه الرحلة وثيقةً تاريخيةً مُهمّة، تكشف عن فهم علماء الدين الإسلامي لدينهم، وحُبِّهم لتراثهم ومقدساتهم، وحرصهم على المعرفة من مصادرها الأصيلة، ورغبتهم في الانفتاح على الثقافات المختلفة والتعارف بين القبائل والشعوب .

ثانيًا : مكونات الفضاء الدلالي:

لمقاربة الفضاء الدلالي لرحلة القاسمي ينبغي معرفة كيفية اختيار دوالِّه ذات الحمولات المعرفية، وأثرها على المتلقي، ومدى إفادته من انزياحات الصُّور الفنية وإيحاءاتها؛ فما الأسلوب إلا "محصلة مجموعة من الاختيارات المقصودة بين عناصر اللغة القابلة للتبادل"[٢] .

وكانت مفردات القاسمي تجنح نحو اللغة المشتركة؛ ليسهل فهمها، فالكلام -كما قال بعضُ أسلافنا- "موضوعٌ للإبانةِ عن الأغراض التي في النفوس، وإذا كان كذلك وجب أن يتخير من اللفظ ما كان أقربَ إلى الدلالة على المُراد، وأوضحَ في الإبانةِ عن المعنى المطلوب، ولم يكن مُسْتَكْرَه المَطْلَع على الأُذُن، ولا مستنكر المَوْرِد على النفس[٣] .

وهذه الوحدات الصغرى لا تكشف قناعها إلا بتجاورها مع أخواتها؛ إذ إن الدلالة- أحيانًا- مع اختلاف السياق، فعندما تعرض "جيرار جينيت" لهذا النوع من الفضاء؛ جعل للغة دورًا مُهمًا في اتساع المعنى، يقول: "فليس "للتعبير الأدبي معنى واحد، إنه لا ينقطع عن أن يتضاعف ويتعدد"[٤]، وذلك عن طريق المعاني الموجَّهة التي تمنحها لها الدّوال في سياقٍ صَنَعه الكاتب، ولذا ينبغي التوقف- أولًا- عند المعجم اللفظي، ثم الصورة الفنية ثانيًا، وثالثًا: التكوين البديعي، وأثر ذلك جميعًا في إثراء المضامين وتشكيل الفضاء الدلالي.

أولًا: المعجم اللفظي وإنتاج الدلالة .

---

(١) السابق، ص٨٠.

(٢) علم الأسلوب .. مبادئه وإجراءاته، د. صلاح فضل، ص١١٦، دار الشروق، ط.١، ١٩٩٨م.

(٣) إعجاز القرآن ، للباقلاني ، ص١١٧، دار المعارف ، القاهرة ، ط. ٥، ١٩٩٧م.

(٤) بنية النص السردي، ص ٦٠.

تحفُل هذه الرحلة بمفردات دالة، عملتْ على نقل مشاعر الكاتب وانفعالاته للمتلقي؛ لتتناغم الألفاظ مع الجانب النفسي والفكري في التعبير عن التجربة خير تعبير.

ومن نماذج هذا ما افتَتح به الكاتب نَصّه: "ثم في صباح الأحد ... خرجنا من درانا طلوع الشمس... وسار لوداعنا لفيفٌ من الأهل والأحباب"(١) .

فقد اختار لهذا الموقِف/ بعضًا من الدوال التي تُظهر عمق المشاعر المتشابكة في لحظة الوداع، إنسانية واجتماعية، فقوله "دارِنا " تدل على وجوده بين قومه معززًا مُكرّمًا، غير خائف يترقب، فرحلته ليست هروبًا أو رغمًا عنه، بل كانت رحلة منتظرَة، طال شوقُه إليها، فقد انطلق مع طلوع الشمس، وهو ما يوحي بالتبكير الذي يدل على الترقب والتلهُّف، والتفاؤل ببداية زمنية مُحبَّبة لمرحلة جديدة في حياته، وهي رحلة غير سِرِّية؛ فقد أَعلن عنها، وسار لوداعه بعضٌ من أهله وأحبابه، وقد حرص الكاتب على اختيار مفرداته في ذلك المطلع؛ كي تصل الرسالة لمُستقبِلها دون لبس، "فأهل العربية يشترطون القصْد في الدلالة"(٢).

ويفيد ضمير الجمع في استهلال الرحلة، بأنها ليست رحلة فردية، بل رفقة متحابة، فقد كان معه- بالإضافة إلى ولده "ضياء الدين"(٣)- رجلان، وقد ذَكَرهما ودَعَا لهما ولذُريَّتِهما في رحلته بقوله: "وكان يساعدني في المقابلة من كان راحلًا معي من "دمشق" إلى انتهاء الرحلة المذكورة، وهما: الشيخ "عبد اللطيف بن حسين" الشهير بـ"الصفدي"، وأحيانًا رفيقنا الثالث الشيخ "ياسين بن الحاج رشيد الفرا الدمشقي"، وفقهما الله-تعالى- لخدمة العلم الشريف، هُما وذُريَّتهما" (٤) .

---

(١) رحلتي إلى بيت المقدس، ص٣٥.

(٢) موسوعة كشَّاف مصطلحات الفنون والعلوم، للتَهانوَي،ج١، ص٧٩٢، مكتبة لبنان ناشرون ، ط.١، ١٩٩٦م.

(٣) سار في طلب العلم؛ اتباعًا لسنن أبيه وأجداده ، لكنه لبّى نداء ربِّه في ريعان الشباب عام ١٣٤٧ه. ينظر: رحلتي إلى بيت المقدس، هامش ص ٤٨.

(٤) رحلتي إلى بيت المقدس، ص٦٣، ٦٤. لم أقف على ترجمة "الصفدي"، والشيخ ياسين الدمشقي: محمد ياسين بن رشيد الفرا، ولد عام ١٢٩١ه، تلقى العلوم الشرعية على كبار علماء المدينة ودمشق

وعندما نزل الحرم الشريف، كانت دواله مفعمة بالمشاعر الصادقة، والاندهاش من جَمَاله، يقول تحت عنوان "في بيت المقدس":

"ثم دخلنا المدينة من باب "الأسباط"...، وبعد أن وضعنا أمتعتنا في حجرةٍ فيه؛ أتينا إلى "الحَرم الشريف"، فلا تسلْ عما هجَم علينا من السرور المفرط، وانشراح الصدر، وبهجة النفس، وانتعاش الفؤاد، وحسبناه قطعةً من الجَنة؛ قد دخلناه حامدين شاكرين لفضله، ونحن تكفكف الدمع؛ فينهمر..." (١).

وهذه لغة تظهر الجانب الروحي، وتبرز شعور القرب من الله- جلَّ وعَلَا- عند أول قَدَمٍ وضعها الكاتب- ومن معه- في هذا المكان المُقدّس، ويظهر ذلك من خلال مفرداتٍ مناسِبة لهذا الموقف، والتي سيطرت عليهم مشاعرُ الفرح والرهبة والخشوع، والتي منها:

(السرور المفرط، انشراح الصدر، بهجة النفس، انتعاش الفؤاد...) .

ولا يخفى ما تفيده مفردة "هجَم" من الفُجاءة والشّدّة...، فضلًا عن ما يوحِي "انهمار الدمع" الذي يكون من جلال الموقف والفرحة برؤيته تارةً ، أو الخوف عليه من الدسائس والمؤامرات تارة أخرى !

ورغم هذا التخيّر لألفاظه المُوحية، إلا أنها جاءت طوعًا غير مستكرَهة، وهذا ما قصده الإمام "عبد القاهر الجرجاني"(ت٤٧١ه) بقوله: "ولن تجد أيمنَ طائراً وأحسن أولًا وأخراً، وأَهدى إلى الاحسان، وأَجلب للاستحسان مِن أن تُرسل المعاني على سجيّتها، وتدعها تطلب لأنفسها الألفاظ " (٢) .

فجاء ذِكرُ أسماء الأماكن التراثية سلسًا دون تكلّف، كما هي في ذاكرة المتلقي،

ومصر والمغرب، ولديه إجازات منهم، مارس التجارة في دمشق وبلاد الحرمين، توفي عام(١٣٨٦ه). ينظر: نثر الجواهر والدرر في علماء القرن الرابع عشر، د. يوسف المرعشلي، ١٥٣، دار المعارف، بيروت ، ط. ١، ٢٠٠٦م .

(١) رحلتي إلى بيت المقدس، ص٥٣.

(٢) أسرار البلاغة، الإمام عبد القاهر الجرجاني، ص١٤، تحقيق: الشيخ "شاكر"، مطبعة المدني، القاهرة، جدة ، ١٩٩١م.

فنصّ على أن دخوله من "باب الأسباط" كما في الفقرة السابقة، وقوله في سياقٍ آخر: "ثم انقلب بنا رفيقنا إلى محل "البراق" غربي المسجد، فانحدرنا في درج إليه إلى موضع الحلَقة... ثم ذهب بنا من باب المسجد المعروف بـ" باب المغاربة" في أواخر الجهة الغربية من صحن المسجد..." [1].

وفيه يستخدم لغة واصفة دقيقة، وأماكن محددة ، في إطنابٍ ظاهر، كما في (البراق، الحلقة، باب المغاربة، صحن المسجد)، كأنه يتبرَّك بها، ويتلذّذ بكتابتها وترديدها، فهو يعلم أن لها في الوعي الجمعي قدسيةً ورمزية، فحرص على مجيئها بهذه الصورة الكلامية التي يغلب عليها الاستطراد .

وتوحي -كذلك- هذه المفردات -الدالة على أماكن محددة- المتناثرة في فضاء النص بسَعة ثقافة الكاتب، ومعرفته بجغرافية المكان الذي يتجوّل فيه، لكنه لم يستطع الإبانة عن كل ما عنده؛ فأحال القارئ إلى مصادرَ متخصصة أصيلة، وذلك إن أراد الاتساع، يقول: "ومن أراد الوقوف على شأن بيت المقدس فعليه بـ"أُنس الجليل"، وكتاب "الروضتين" لـ"أبي شامة"[2]، ويعزز معنى موسوعيته؛ تَعداده لهذه الكتب بأسمائها وأسماء أصحابها، وهو ما يفيد -كذلك- جُنوحُه للإيجاز؛ بسببٍ من ضيق وقْته وكثرة مهماته .

وفي خِضَم هذا الشعور الروحاني يطغى الجانب العاطفي، فلم ينسَ شراء هدايا لأولاده من مدينة "الخليل"، يقول: "واشترينا من بعض التجار قطعا صدفية، أعددناها هدية إلى الأولاد والعيال، وقد انفردت هذه المدينة بدقة الصنعة، والتفنن بالقطع الصدفية "[3].

وتبوح هذه الفقرة بعددٍ من الدلالات، فلم تنسه رحلتُه-بما فيها من معالم دينية، وإشراقات نورانية، وغرائب عجائبية، وعلماء وتصانيف- أهلَه، وبخاصة الأولاد والعيال، مما يشير إلى تعلّقه بهم، وتطلّعه إلى للقائهم، وشوقه إلى رؤيتهم بعد طول غياب .

---

(١) رحلتي إلى بيت المقدس، ص٨٢، ٨٣.

(٢) السابق، ص٨٧، ٨٨.

(٣) رحلتي إلى بيت المقدس، ص ٨٥.

كما أنه استعمل بعض الألفاظ الشائعة في عصره حينئذ؛ واقتراباً من اللغة العامة المشتركة، مثل: "الوابور"، الفركون، القومندان "[1]، وغيرها من المفردات المماثلة التي كانت متداولة على الألسنة في زمنه ، ويشير هذا الاستعمال إلى أثر الاستعمار في اللغة العربية !

إلى غير ذلك من الدوال التي أشبعت النصّ بروحانية عالية، وأظهرت موسوعية الكاتب الجغرافية والتاريخية واللغوية...، وبعضاً من صفاته الشخصية، ويفهم من هذا أن رؤية الكاتب تساعد بصورة لافتة في بنية الفضاء الدلالي لنصِّه الإبداعي .

ثانيًا: الصورة الفنية والفضاء الدلالي

جعل "القاسمي" التعبير بالصورة –في بعض الأحيان– وسيلةً من وسائله؛ لتعميق دلالته نصِّه، وبث الحياة فيه ، وهي من مظاهر اتساع الفضاء الدلالي؛ فقد عُرِّف الفضاء الدلالي، بأنه صورة، "حيث يمكن لكلمةٍ واحدة أن تحمل معنيين، تقول البلاغة عن أحدهما إنه حقيقي، والآخر مجازي، هناك إذن فضاء دلالي يتأسس بين المجازي والحقيقي..."[2].

الأمر الذي يبدو جليًّا في نماذج كثيرة من هذه الرحلة ومنها هذه الفقرة التي كتبها تحت عنوان""أريحا [3]:

"... ثم امتطينا الخيل وسِرْنا مُجدِّين، حتى أشرفنا بعد طلوع الشمس على فيحاءَ واسعةٍ، ولاح لنا من بعيدٍ سوادُ "أريحا" ولم نزل مجدين حتى أنزلنا أَحدُ أخوال ولدي "ضياء الدين" – وكان معنا– عند بعض معارفه من العرب، وبعد أن فرَشوا لنا ما لديهم؛ نِمْنَا نحو ساعة، ثم جلسنا، وأحضروا لنا غذاءنا، ودعونا للمقام عندهم فأبينا...ونزلنا في دار حكومة

---

(١) الوابور: كانت تُستخدم– قديمًا– للإشارة إلى وسائل النقل التي تعمل بالبخار، ثم صارت تشير بشكل عام إلى القطارات، ويقصد بـــــــ"الفركون": عربات نقل البضائع، وهي كلمة تركية ، و"القومندان"، مصطلح عثماني يطلق على الضابط، والقائد، ورئيس فرقة بحرية. ينظر: المعجم الجامع في المصطلحات الأيوبية والمملوكية والعثمانية، د. حسن حلاق ، د. عباس صباغ ، ص١٨١، دار العلم للملايين ، ط. ١، ١٩٩٩م .

(٢) بنية النص السردي، ص ٦٠.

(٣) مدينة فلسطينية، تبعد عن مدينة "القدس"، حوالي٣٧ كم. سميت بذلك– كما قيل– بأريحا بن مالك بن سام بن نوح. ينظر: معجم البلدان، ياقوت الحموي، ج١، ص ١٦٥.

مديريتها؛ ريثما يبردُ الهواء ونؤدي الفرضَ، فصلينا "الظُّهرَ" وتناولنا "الشايَ" بعد القيلولة، ثم صلينا "العصر"، وركبنا منها إلى خانٍ بين "أريحا" و"القدس"، وهب الهواء عاصفا، وبرد الجو؛ فاضطررنا إلى المبيت هناك، لا سيما وفي المسافة إلى "القدس" بقيةٌ بعد؛ فصلينا صلاة "المغرب" في حجرةٍ فيه واسعة، ونِمْنَا فيه، ثم استيقظنا قبل صلاة "الفجر" فتوضأنا...، ثم ركبنا... حتى لاحتْ مباني "بيت المقدس"(١) .

ويبدو – من هذا النموذج– دورُ الصورة الفنية في تصوير الرحلة بجوانبها الحِسَّية والمعنوية، مما يضفي على العمل عمقًا وجمالًا؛ فقد نقل صورة صادقة عن رحلته التي تشق الفيافي والجبال بين "أريحا" و"القدس"، في ريحٍ عاصف، وهواء بارد، لم يُمكِّنهمْ من مواصلة المسير.

فقوله "اضطررنا" كناية عن التعب وعدم القدرة على الاستمرار، وقوله: "هبّ الهواء عاصفا"، استعارة تُصوّر الهواء مثل كائن حيٍّ قادرٍ على أن يهبّ بِشِدَّة، إلى أن قال: "حتى أشرَفْنا -بعد طلوع الشمس- على فيحاءَ واسعة"، وهو تصوير للراحة بعد مشقّة السفر التي ذَكَر بعضًا منها، وفي قوله: "وبعد أن فرَشوا لنا ما لديهم؛ نمنا نحو ساعة"؛ كناية عن حُسن الوفادة وكَرمِ الضيافة .

وتعد هذه المفردات (السير بَجِديّة ، الهواء العاصف ، الجو البارد، صلاة الفريضة...) علامة أيقونية ، بحسب تصور بعض منظِّري" السيمائية ، حيث إنها الدليل الذي يعبر عنه بواسطة صفاته الخاصة(٢) ، أي العلاقة المركبة بين الدال ومدلوله ، وبين القول في صورته الأولية وما تدل عليه من مراحل تالية ، حيث المرحلة الأولى تعبر عن جود شيء في ذاته، والثانية: وجود شيء في ذاته مع وجود علاقة بينهما، والثالثة– وهي مرحلة التوسط– تعني إدراك العلاقة بين المقولة الأولى والثانية"(٣).

ويظهر هذا– كثيرًا– عندما يصف الكاتب مشاعره – ومشاعر رفقته– في "بيت

---

(١) رحلتي إلى بيت المقدس، ص ٥١ .

(٢) سيمائية النص الأدبي، أنور المرتجى، ص ٥، أفريقيا الشرق، الدار البيضاء، ١٩٨٧م.

(٣) السابق.

المقدس"، فها هو يصور الحالة التي كانوا عليها عند أول قدمٍ تم وضعها : " **فلا تسلْ عما هجَم علينا من السرور المفرط، وانشراح الصدر، وبهجة النفس، وانتعاش الفؤاد، وحسبناه قطعة من الجَنّة؛ قد دخلناه حامدين شاكرين لفضله، ونحن نكفكف الدمع؛ فينهمر**"(١).

فإن في هذه المتواليات من الجُمل المعطوفة، من تراكمِ المشاعر ما فيها، كما أنه عمَد إلى سيْرِها في خَطٍّ تجسيديٍّ تصاعديٍّ حثيث: سرورٌ، فانشراح، فبهجة، فانتعاش للفؤاد، وذلك الاستعمال المجازي للكلمات، يفيد المبالغة، ويساعد على التخييل، ويقدح ذهن المتلقي لاستقبال الإشارات والعلامات؛ فقد اجتمع فيها كثير من دلائل السيميائية (أيقونة ومؤشر ورمز) ؛ حيث "إن السيمائيات -كما صورها "فرديناند دي سوسير" (Ferdinand De Saussure)(٢)،"- عِلمٌ يدرس حياة العلامات في قلب الحياة الاجتماعية"(٣) .

كما وُفِّق في التشبيه، بأن حسِب هذا المكان- للأسباب التي ذكرها- "**قطعةً من الجَنَّة**"؛ لإظهار حالة الرضا والفرح والنّعيم التي وَجَدها في نفْسه، وفي عيون رِفقته؛ وإبداء طابعَ التعظيم والجَمال والجَلال، ونقْله إلى المتلقي كما هو أو قريبٌ منه، وهذا من فوائد التشبيه؛ "فإنك إذا مثّلتَ الشيءَ بالشيء، فإنما تقصد به إثباتَ الخيال في النفْس بصورة المشبّه به أو معناه، وذلك أوكد في طرفيْ الترغيب فيه، أو التنفير عنه"(٤).

كما لا يخفَى جمالية الكناية في انهمار الدمع، التي تُظهر عدم قدرتهم على كبْح

---

(١) رحلتي إلى بيت المقدس، ص ٥٣ .

(٢) من أشهر علماء اللغة في العصر الحديث، ولد في جنيف عام ١٨٥٧م من أسرةٍ مشهورةٍ بالعلم والأدب، درس في جامعات جنيف وبرلين عام ١٨٨٠م، أستاذ علم اللغة العام في جامعة "جنيف"؛ حتى وفاته ١٩١٣م. ينظر:خمسون مفكرًا أساسيًّا معاصرًا ...، جون ليشته، ص ٣٠٧.

(٣) السيميائيات، بيير جيرو، ترجمة د. منذر عياشي، ص ٥، دار نينوى- دمشق ، ط. ١، ٢٠١٦م.

(٤) المثل السائر، ابن الأثير، ج٢، ص١٢٤، تحقيق: د. أحمد الحُوفي، د. بدوي طَبانة، دار نهضة مصر، ط. ١، ١٩٦٠.

جماح مشاعر الفرحة وانتعاش الفؤاد، فضلًا عن مظاهر السمو الروحي التي تركتْ آثارها في فضاء النص العام؛ فالصورة الفنية "طريقة خاصة من طرق التعبير، أو وجه من أوجه الدلالة، ترجع أهميتها فيما تُحْدِثه في معنى من المعاني من خصوصية وتأثير"(١).

وفي موضع آخر يُصوّر عودته إلى "الحرم الشريف"، ورؤيته "الصخرة الشريفة"، يقول: "ثم وَرَدْنا "الصَّخرةَ الشريفة"، وأرينا آثارها، ثم استقبَلَنا شخصٌ من خُدَّامها... فدلَّنا على "الزاوية الداودية"، وقال: هي منزل الفضلاء القادمين لهذه البلدة... وفي يوم الأربعاء طافوا بنا في الحَرم، فتقاطرت علينا "أرباب الحجرات" في صحن الحرم، حول الصخرة، كل يرغب أن نأخذ حجرته إن شئنا، ثم دلّنا شخصٌ على حجرة داخل الحرَم الأقصى في قبليِّه، جهة منبره الأَيمن ...، فآثرتُها على كل حجرة؛ لقربها من الحَرَم الذي هو البُغية من الرحلة، وتيسُّر بيتٍ للطهارة فيها، ولإشراف برانيها على ما حول الحرم من المباني والبطاح الفيحاء. ولقد زارني من لا أشك في صلاحه، وقال: أبى الله إلا أن تكونوا في حَرَمِه، وأضيافَ بيْته؛ فأبكاني سرورًا، وسجدت الله شُكرًا " (٢).

ففي هذا النص لغة فنية عكست عظَمة المكان وقُدسيته، وجعلتْ من هذا المكان حيًّا نابضًا بالحياة، ويبعث في النفس مشاعر الاطمئنان والجمال، فالتعبير بالصورة يحرك خيال المتلقي، ويجعله يقظًا باحثًا عن مراد المبدع، حتى لا يحدث لبس بالتأويل الخاطئ.

فقوله: "فدلَّنا على "الزاوية الداودية"، وقال: هي منزل الفضـــلاء القادمين لهذه البلدة"، كناية عن الترحيب بهم وإنزالهم منزلتهم اللائقة ، كما يرمز إلى أن هذه الزاوية تضرب في الجمال والسَعة بسهم وافر، فقد بناها السلطان "عبد المجيد"؛ لنزول الزوَّار بها(٣).

وقوله "طافوا بنا الحرم"، يزيد من روحانية الرحلة، ويدل كذلك على جمالية تصوير

---

(١) الصورة الفنية في التراث النقدي والبلاغي عند العرب، د. جابر عصفور، ص ٣٢٣، المركز الثقافي العربي، ط. ٣، ١٩٩٢م.

(٢) رحلتي إلى بيت المقدس، ص٥٤، ٥٥ .

(٣) ينظر: الرحلة السامية إلى الإسكندرية ومصر والحجاز والبلاد الشامية، لأبي جعفر الكتاني، ص ٣٠٤، مركز التراث الثقافي العربي– المغرب، د. ت .

حركتهم وتنقلهم داخل أروقة هذا المكان المقدس، وأما قوله: " **فتقاطرت علينا أرباب الحجرات في صَحْن الحَرم**"، وهو مشهدٌ تفصيليٌ رسَمه الكاتب، بعين مُحبِّة، وصورةٍ حيَّة؛ فقد أظهر الناسَ في الحَرم وكأنهم قطرات مطر تنساب في تناغمٍ ورِقَّة، كما أن قوله: "**أرباب الحجرات**" يُعزِّز من قِيمة المكان ومَن حوله، من بَشَرٍ وحَجَر...، بل إن ما حول هذا المكان من "**بطاح فيحاء**" يظهر ما رآه من اتساعٍ آسِرٍ، وجمال بهيجٍ يسرّ الناظرين.

إن هذا الوصف التفصيلي الدقيق–الذي يغلب عليه الذاتية–والذي هو من خصائص أدب الرحلات عموماً – يحيل بصورة منطقية إلى أسباب السعادة والبِشر والطمأنينة التي وجدها في المكان الهدف/ بيت المقدس، وهذه العلاقة المنطقية ألح عليها كثيراً عالم اللغة الأمريكي تشارلز بيرس (Peirce. S.Ch) (ت: ١٩١٤م) في دراسته للسيمائية(١).

وكما أن مفردة "**صحن الحرم**"، تصور بعضاً من المعاني التي يريد أن تصل إلى المتلقي؛ فهو مكان مفعم بالجلال والروحانية، فهو ما يجتمع الناس فيه وحوله قائمين متطهرين، وهذا دور القارئ في العناية "باللغة الفنية المُشكِّلة للنص، والدلالات التي يمكن الوصول بها إلى المعنى الغائب منه" (٢).

هذه الصور الفنية الحية جاءت لتعمق من دلالات النص، ونقل تجارب الكاتب الروحية والحسية، والتي ينبغي على القارئ عند تناوله للنص أن يدرك مرامي الكاتب، من الإيحاءات والرموز والمعاني البعيدة التي لا تكشف قناعها للقارئ من أوِّل مرة .

ثالثا: التكوين البديعي وإثراء الفضاء الدلالي

للبديع أهمية لا تُنكر في توجيه الخطاب نحو ما يريد المنشئ، لما له من وقْع نغمي يطرب الوجدان، فضلًا عن تقوية المضامين؛ فالناحية الدلالية "تتلبّس بعملية الكشف

---

(١) ينظر: السيميائيات، بيير جيرو، ص١٠ .

(٢) ينظر: منهج التحليل الأسلوبي وإشكالية التطبيق، د: أحمد بخضر، أ. علي زواري أحمد. بحث منشور بمجلة علوم اللغة العربية وآدابها، جامعة الوادي، الجزائر، عدد ١١، ٢٠١٧م، ص ١٧٩.

البديعي، وإن بدتْ -أحيانًا- في مظاهر صوتيّة أو مظاهر إيقاعيَّة" [١] .

لكنها جاءت في رحلة "القاسمي" طوعًا لا كرها، فلم يكن هدفه تزيين الألفاظ وتكلّف الجناس والأسجاع وغيرها من المحسِّنات اللفظية؛ لضيق وقته، وطبيعة نصّه.

ومن النماذج التي جاءت سلسة دون تكلف قوله: "**هذا، ولم تخل- بحمده تعالى- مجامعنا من مذاكرات علمية، ولطائف أدبية، ومفاكهات تستروح إليها النفوس، واستصحاب كُتبٍ أشهى لدينا من منادمة العروس ...**" [٢]

ولا شك أن هذه الفقرة تُطرِب أُذن المتلقي؛ لما تحتوي عليه من تأثيرات صوتية، وإيقاعات نغمية، تجعله يقبل على النص، ويرجع البصر فيه كرّتين؛ ليدرك جمالية التقسيم في قوله: **مذكرات علمية، لطائف أدبية**، وقوله:" **تستروح إليها النفوس، أشهى لدينا من منادمة العروس**؛" وفي موضع آخر يجمع بين "**القصب والحطب**"، وهذه أمور يعنى بها النقد الأدبي لسبر أغوار النص وتأويله؛ لأن "النقد الأدبي يَنظر إلى الإيقاع باعتباره عنصرًا أساسيًّا في الفنون كلها " [٣] .

كما تتبدّى جمالية السجع بين "**النفوس**" و"**العروس**"، فضلًا عن جمال الاعتراض في قوله: "**بحمده تعالى**" الذي يبيِّن تواضعه ونسبة فضل ما هو فيه لله وحده .

هذا الحمد عادةٌ من عاداته، فعندما يَذكر إنجازًا شخصيًّا؛ يُرجع الفضل لربه -سبحانه وتعالى- ويحمده على نِعَمه، وذلك في تعبيرٍ أدبيٍّ موجَزٍ، كما في قوله -مصورًا الأيام التي قضاها في إحدى محطات رحلته"[٤]- "**وهكذا قضينا عشرة أيام كانت مظهرًا للأُنس**

---

(١) بناء الأسلوب في شعر الحداثة- التكوين البديعي، د. محمد عبد المطلب، ص ٨، دار المعارف ط. ٢، ١٩٩٥م .

(٢) رحلتي إلى بيت المقدس، ص ٤٥ .

(٣) مدخل إلى علم الأسلوب، د. شكري عياد، ص ٥٣، ط. ٢، ١٩٩٢م .

(٤) وهي مدينة السلط، وهو حصن عظيم، ويقال لها: "السنط، تبعد عن عمان ٢٠ كيلو متر تقريبًا، وهي تابعة لمحافظة البلقاء. ينظر: تاج العروس، للزبيدي، ج١٩، ٣٧٦، وزارة الإرشاد الكويتية، ٢٠٠١م. ينظر- أيضا- رحلتي إلى بيت المقدس، ص ٤٦.

والسرور، بحمد الله الشكور" [1].

وهذه الفقرة تضرب في التكثيف والإيجاز بسهمٍ وافر، اختصرت التجربة الممتدة/ الأيام العشرة في صورة واحدة، فضلًا عن احتوائها على محسنات لفظية ومعنوية، مثل السجع بين (السرور، والشكور)، وهذا الاعتراض- الذي تم الإشارة إليه آنفًا- يعد سمة أسلوبية خاصة بالكاتب تزخر بها رحلتُه، فالاعتراض الذي يأتي لفائدة جارٍ مجرى التوكيد، كما يقول "ابن الأثير" [2].

ومن المعلوم أن الرحلة -هذه- كانت في أواخر العصر العثماني، الذي كان حافلًا بالصنعة، وغَلَبة السّجع على كثيرٍ من المصنفات والتآليف، ولم ينجُ منه "القاسمي" في كثير من كُتبه، غير أنه تخلّص-هنا-من ذلك؛ إما لطبيعة العمل وظروف توثيقه والغرض منه، أو لأن لغته قد نضجتْ في ذلك الحين، وبدأ يكتب على السليقة والطَّبع وترك الصنعة والتكلُّف، أو لتأثره واتصاله بالإمام "محمد عبده"- "حيث كان القاسمي معجبًا به وبأسلوبه- فجاء أسلوبه عربيًا صافيًا رائعًا في قوة التراكيب، وجزالة الألفاظ، ودقة الأداء"[3].

وللمقارنة أُورِد هذا النص من مقدمة كتابه "محاسن التأويل"، حيث يقول محددًا أهداف تأليفه: "**وإني كنت حركتُ الهِمّة إلى تحصيل ما فيه من الفنون، والاكتحال بإثمد مطالبه لتنوير العيون، فأكببتُ على النظر فيه، وشغفتُ بتدبُّر لآلئ عقوده ودراريه، وتصفحتُ ما قدر لي من تفاسير الأولين، وتعرفت- حين درست- ما تخللها من الغث والسمين...، وبعد أن صرفت في الكشف عن حقائقه شطرًا من عمري، ووقفت على الفحص عن دقائقه قدرا من عمري؛ أحببتُ أن أنخرط في سِلَك مفسريه الأكابر... واستخرت الله -تعالى- في تقرير قواعده، وتفسير مقاصده، في كتاب اسمه -بعون الله الجليل - محاسن التأويل**"[4] .

والفرق واضح بين الأسلوبين، بين أسلوبه القديم والجديد، والموضوعية والذاتية، والتأليف العلمي وخطاب الحكاية القائم على الترسّل والوضوح.

---

(١) رحلتي إلى بيت المقدس، ص ٤٨.

(٢) المثل السائر، ج٢، ص١٧٣.

(٣) ينظر: جمال القاسمي وعصره ، ص ٧٧.

(٤) المثل السائر، ج٢، ص١٧٣.

ويُلمح طباقٌ معنويٌ- في الفقرة السابقة من نصِّ الرحلة- بين المدة المتواصلة(عشرة أيام) وما يتخللها -عُرْفًا- من مشقّةٍ ونَصَب، غير أنه كسَر أُفق التوقع، بوصفها هذا الوصف الذي ذَكَره، والسبب في ذلك يرجع لانشغاله بمعالي الأمور، مثل "المذكرات العلمية، واللطائف الأدبية وتردده على المكتبة الخالدية، ولقاء الأعيان والعلماء، واكتشاف المعالم الأثرية التاريخية منها والدينية، بالإضافة إلى "الصلاة" في وقتها الفضيل، ومكانها النوراني الجميل.

ولا يخفى أن هذا التشكيل الإيقاعي -في فقراته السابقة- يدل على تنوع الأنشطة التي يقوم بها مع رفقته، وهي أعمال متواليةٌ مُحببَّة غير مســـتكرَهة، كتوالي هذه التراكيب المذ سجمة معنويًا وإيقاعيًا، وا ستدعاء بع ضها لبعض في رِقَّةٍ واذ سيابية، وهذا يدل كذلك على كثرة مطالعة الكاتب لكثيرٍ من كلام العرب؛ فسار على سَنَنِهم .

يقول في موضع آخر: "وكان خرج لاستقبالنا من "عمّان" بعض الخلان، وأحضر لنا الدواب فركبناها، وسرنا إلى عمان فوصلناها ..." (١).

وفيه يظهر تق سيم الأحداث: (الا ستقبال، إح ضار الدواب والركوب، والو صول) متوافقًا مع هذا الإيقاع المتناغم بين أجزاء الفقرة؛ مما يســـاعد المتلقي على فهم الأحداث واســـتيعابها، بطريقة منظمة ومترابطة، كترابط التراكيب النحوية المتوافقة لتتجاوب معها المضامين الدلالية ، في تناغم يلقي بظِلاله على المتلقي .

وأحيانًا يجمع بين المفردة وما تناسبها في المعنى ، وهو ما عرفه البلاغيون بـــــ"مراعاة النظير"، الذي يجمع بين الأمور المتناسبة ، ولذا يسمى بالتناسب والمؤاخاة بين المعاني " (٢)، فقد جمَع -في مواضع عدة- بين(السرور المفرِط، وانشراح الصدر، وبهجة النفس، وبين الهواء العاصف والجوِّ البارد، والترحاب والإيناس، والعَشاء والمَنام، والعُجب وإحباط العمل، والاسترجاع والحوْقلة ، والجَمْع والقصْر)، وغيرها من المعاني المتوافِقة التي تعمل على إيضاح الدلالة وتعميقها، بالإضافة إلى جذب انتباه المتلقي؛ فيقتنع بالرسالة التي يحملها الخطاب، بعد أن راقتْ له ألفاظُه وأساليبُه .

وتتبدى جمالية "الجناس" بين "العِشاء" و"العَشاء" في قوله: "وسَلَكنا في وادٍ يقال له

---

(١) رحلتي إلى بيت المقدس، ص ٣٨.

(٢) ينظر: علم البديع، د. بسيوني فيود ، ص ١٥٦، مؤسسة المختار للنشر والتوزيع - القاهرة، ط. ٢، ١٩٩٨م.

"وادي شعيب" ... إلى أن أنخنا على خافة النهر ذلك الوادي قبيل العِشاء... ثم أحضرنا ما زودنا به من العَشاء"(١) .

وإن كانت هذه المحسِّنات جاءت عفوا، إلا أنها تدل على معرفة "القاسمي" بأثرها على المتلقي، وبخاصة في النثر، الذي يحسُن فيه التزيين، بشروطه التي تعارَف عليها النقاد منذ قديم، يقول صاحب "الصناعتين": "واعلم أنّ الذي يلزمك في تأليف الرسائل والخُطب هو أن تجعلها مزدوجة فقط، ولا يلزمك فيها السّجع، فإن جعلتها مسجوعة كان أحسن، ما لم يكن في سجعك استكراهٌ وتنافرٌ وتعقيدٌ "(٢) .

فتنتج نصًّا متسمًا بالنمو والاستمرار، ساعد في هذا الاستمرار تلك النغمة الناشئة من الوزن المتوافق؛ فتزيد من نسبة التواصل بين طرفي عملية الاتصال .

وبناءً على ما سبق؛ فإن الفضاء الدلالي قد تشكّل بوسائل عدة، وعلاقات متشابكة بين الرموز والدوال والمعاني، والتي تفاعلت جميعًا؛ ليتناغم هذا الفضاء مع غيره من الفضاءات الأخرى؛ وتنقل التجربة- على إثر ذلك- نقلًا صادقًا، من أمكنة وأزمنة، وثقافات وعادات، وأحداث وشخصيات، فضلًا عن مشاعر الكاتب الذاتية وتصوراته وتأملاته وطباعه النفسية، وسماته الأسلوبية .

الخاتمة

وبعد، فإن هذه الرحلة تمثّل محطة تاريخية مُهمّة في حياة العلّامة "جمال الدين القاسمي"؛ بثرائها المعرفي، وزادِها الرُّوحي، وفضاءاتها المتنوعة ...، والتي حاوَل البحث الكشفَ عن بعض دلالاتها، وشيءٍ من جمالياتها، وهذه بعض النتائج التي خلُص البحثُ إليها:

١- موسوعية الشيخ "جمال الدين القاسمي"، فكان مثقفًا، رحّالة، مهتمًا بشئون أُمَّته، عالمًا، جادًّا في تحصيل العلوم في سفره وحضره ، فقد زادت مصنفاته على السبعين كتابًا في علومٍ شتَّى.

---

(١) السابق، ص ٥٠ .

(٢) الصناعتين، لأبي هلال العسكري، ص ١٩٥، تحقيق: علي محمد البجاوي، ومحمد أبو الفضل إبراهيم، المكتبة العصرية، بيروت ، ١٩٨٦م .

٢- تجلّتْ في الرحلة أهمية مدينة "القدس" التاريخية والدينية، والتي جعلتها محطَّ الأنظار ومهوى الأفئدة، فهرع إليها الرحّالة من كل حَدَبٍ وَصَوْب؛ لاستكشاف معالمها، واغتنام أجْر زيارتها .

٣- سلّط "القاسمي" الضوء على معالم مدينة "القدس"، وقيمها الحضارية، وبخاصة التعايش السِّلمي بين المسلمين والمسيحين، وأَبرَزَ دورَها في حفظ التراث الإسلامي، وعـــناية أهلها بالمكتبات العلمية والمخطوطات النادرة، ومن نماذج ذلك ما كتبه عن "المكتبة الخالدية".

٤- احتفى القاسمي في رحلته بالأماكن التي مرّ عليها في مراحلها الثلاث (البداية ، الوسط، الهدف)؛ ووسَّع دائرة الوصف للمعالم التراثية والدينية، وإعطاء النص طابعه الديني والروحي المميَّز؛ مما منح الفرصة لاكتشاف رؤيته، وخصائص شخصيته، والوصول إلى فلسفة العمل وغايته .

٥- أفاد الكاتب من الفضاءات المكانية التي تمّت فيها الأحداث، وتحركت فيه الشخصيات وجعَله مكونًا رئيسًا في آلة النص الحكائية، متناغمًا مع مكونات الفضاء الأخرى، وبخاصة الفضاء الزماني، فانتقلت بذلك الأماكن من كونها أماكن جامدة مجردة إلى هدفٍ سامٍ، وهو العناية بهذه الأماكن المقدسة والحفاظ عليها من الأطماع، وبخاصةً في ظل التحديات والاضطرابات السياسية التي تواجهها القدس- والأُمّة عمومًا- وبخاصة في تلك المرحلة التاريخية التي عاشها الكاتب، مطْلع القرن العشرين .

٦- كان للفضاء النصِّي الدور الفعّال في سبر أغوار النص، من خلال تتبع الإشارات الضمنية المبثوثة في فضاء هذه الرحلة المباركة، كدلالات العناوين الرئيسة والفرعية والمقدمات، وغيرها، فضلًا عن كشْفه التداخل بين النصوص الآنية والنصوص الغائبة في العناوين والمضامين، وأثر ذلك -كله- في القراءة والتلقي.

٧- كان "القاسمي" كثيرا ما يتريّث في اختيار مفرداتٍ ذات حُمولات معرفيّة ثرَّة، فجاءت- في مُجملها- سَلِسةً قريبة، ناسبتْ طبيعةَ العمل، في صورة حقيقة

تارة، وأخرى تعتمد على الإيحاء والتصوير؛ طبقًا لما يقتضيه المقام ويتطلّبه السياق.

والحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات .

ملحق

نماذج من نص رحلة "القاسمي" إلى "بيت المقدس" [1]

بداية الرحلة[2]

"لم أزل كثير التشوق لزيارة هذه الأماكن المباركة، منتظراً الفرصة حتى حانت، فشددنا لها ساعد الهِمّة، وقد أبرزناها من القول إلى الفعل وذلك في أواخر شهر محرم فاتح (١٣٢١ه)، ونوينا الذهاب عن طريق البر .

ثم في صباح الأحد ٢٩ محرم المذكور، خرجنا من دارنا طلوع الشمس، بعد أن قرأنا وِرْد المسافر، وجيء لنا بعربة فوقفتْ أمام حارتنا، وهي زقاق العلامة المكتبي، ظاهر "باب الجابية"، المجاور لجامع الزيتونة، فاستطرناها إلى محطة الميدان (القطار) وسار لوداعنا لفيف من الأهل والأصحاب ...".

وادي شعيب[3]

"ثم عزمنا على السير منها(أي من عمّان) إلى الأرض المقدسة، فخرج لوداعنا إلى منحدر "عين الجاورد" في طرف الوادي جمع من الأصحاب، وسرنا –على بركة الله تعالى– قبيل المغرب بساعة، مساء الأحد في ٢٠ صفر الخير، حتى قطعنا حدائق "السلط" البديعة، في منفرج تلك الجبال المخصبة، المتخلل بينها عيون عذبة جارية، وهي بمقدار ساعة ونصف، ثم تخللنا مسالك بين جبال، فصرنا تارة في انخفاض، وآونة في انحدار.

وسلكنا في وادٍ يقال له "وادي شعيب"، لزعمهم أن "شعيب" عليه السلام مدفوزن في جيل هناك، إلى أن أنخنا على حافة نهر ذلك الوادي قُبيل العِشاء، وصليناها مع المغرب مجموعة جمع تأخير ثم احضرنا ما زوِّدنا به من العَشاء، وأحضر لنا المكّارون

---

(١) هذه بعضُ نماذج من الرحلة؛ لأن المجال–هنا–لا يتسع لإيرادها كاملة، وقد فصلتُ بين هذه الفقرات بفاصلٍ؛ منعاً للبس.

(٢) رحلتي إلى بيت المقدس، ص٣٥، ٣٦.

(٣) السابق، ص ٥٠ .

من القصب والحطب، وأوقدوا لنا ناراً ؛ فأضاءت ما حول النهر عن أشجار من الدفل البديع المونق، مكلل بتيجان حمر بهيجة المنظر.

وبعد تناول الطعام أخذنا في الاضطجاع، ولم ينلْنا بردٌ أصلا، بحمده تعالى؛ لأن ذلك الأسبوع زادت فيه الحرارة بحِكمته تعالى، حتى إذا كانت الساعة التاسعة من الليل، وقرب ظهور القمر من رؤوس الجبال تحرّك الركب للمسير؛ فامتطيا متون الجياد، وسرنا في ذلك الوادي جانب النهر إلى أن قطعناه، وارتقينا على ظهر جبل، ومنه الى جبال "الغور"[1] الهائلة التي كان من الحِكمة قطعها ليلًا، وإلا فليس الخبر عن هولها كالعيان، خصوصا في مسالك منها على حرف الجبل في غاية الضيق، ومنها ما هو في غاية الانحدار مع التوعّر، إلى أن وصلنا مع الفجر..." .

في بيت المقدس(٢)

ثم دخلنا المدينة من باب "الأسباط"، ضحوة الثلاثاء في ٢٢ من صفر الخير، الموافق الخمس من "أيار"، فأنزلنا المكاري في خانٍ هناك، وبعد أن وضعنا أمتعتنا في حجرةٍ فيه؛ أتينا إلى الحرم الشريف، فلا تسل عمّا هجم علينا من السرور المفرط، وانشراح الصدر، وبهجة النفس، وانتعاش الفؤاد وحسبناه قطعة من الجنة، قد دخلناه حامدين شاكرين لفضله، ونحن نكفكف الدمع فينهمر .

ثم وردنا الصخرة الشريفة، وأرينا آثارها، ثم استقبلنا شخص من خُدّامها، وسألنا عن نُزلنا، فقلنا: الآن أمتعتنا بالخان، فدلنا على الزاوية الداودية، وقال: هي منزل الفضلاء القادمين لهذه البلدة، ولها إطعامية سلطانية؛ لذلك ذهبنا بعد العصر إليها، فاستقبلنا قيِّموها الكرام وأصعدونا إلى غرفة فخيمة، ثم أكدوا علينا في تناول العشاء والمنام؛ فامتثلنا، وشاهدنا منهم غاية الترحاب والإيناس، ورغبوا أن نكون نُزلاءهم مدة مقامنا؛ فأبينا، رغبة في أن يكون نزولنا في الحرم نفسه .

وفي يوم الأربعاء طافوا بنا في الحرم، فتقاطرت علينا أرباب الحجرات في صحن

---

(١) غور الأردن بالشام، بين دمشق وبيت المقدس. رحلتي إلى بيت المقدس، هامش ص ٥١.
(٢) رحلتي إلى بيت المقدس، ص ٥٣.

الحرم وحول الصخرة ، كل يرغب أن نأخذ حُجرته إن شئنا، ثم دلّنا شخصٌ على حجرة داخل الحرم الأقصى في قبليِّه، جهة منبره الأيمن، جانب مقصورة الحديد، فآثرتها على كل حجرة؛ لقربها من الحرم، الذي هو البغية من الرحلة، وتيسُّر بيتٍ للطهارة فيها، ولإشراف برانيها على ما حول الحرم من المباني والبطاح الفيحاء .

ولقد زارني من لا أشك في صلاحه، وقال لي: أبى الله إلا أن تكونوا في حَرمه وأضياف بيتِه، فأبكاني سروراً، وسجدتُ الله شكراً .

ثم طلب منِّي مجاورٌ الحرم قراءة درس عام فأبيت؛ **خوفًا من دخول العُجب عياذًا بالله**؛ فتحبط الرحلة، وشكوا الي فَقْد العلماء من تلك الديار المباركة، فاسترجعت وتحوقلت، ودعانا في مدة إقامتنا بعضُ التجار المياسير، وبعض أهل الأدب لداره والإقامة عنده، فأجبنا الدعوة دون المقام؛ ضنًّا على جوار الحرم الشريف..." [١].

" ثم عزمنا على المسير من بيروت نهار الخميس؛ فامتطينا الوابور، ثُمَّ وافينا "دمشق" مساء الخميس على حين غفلة، وتمّت الرحلة أربعين ليلة، والحمد لله أولًا وآخراً ، وصلَّى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم"[٢].

---

(١) السابق، ص ٦٤.

(٢) السابق، ص ٦٤.

المصادروالمراجع

أولًا: القرآن الكريم

ثانيًا: كتب السنة النبوية

ثالثًا: المصادر

١. أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، المقدسي، مكتبة مدبولي- القاهرة، ط.٣، ١٩٩١م

٢. الأعمال المقدسية، د. كامل العسلي، وزارة الثقافة، عمَّان، ٢٠٠٩م .

٣. جمال الدين القاسمي وعصره، ظافر جمال الدين القاسمي، المطبعة الهاشمية، دمشق، ط . ١، ١٩٦٥م .

٤. رحلتي إلى بيت المقدس، جمال الدين القاسمي، تحقيق: "محمد بن ناصر العجمي"، دار البشائر الإسلامية، بيروت، ط. ١، ٢٠١٠م .

رابعًا : المراجع

١. أدب الرحلات، د. حسين فهيم، عالم المعرفة، المجلس الوطني للثقافة والفنون، الكويت، يونيو- ١٩٨٩م .

٢. استراتيجية المكان، د. مصطفى الضبع، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ٢٠١٨م.

٣. أ سرار البلاغة، الإمام عبد القاهر الجرجاني، ، تحقيق: الـ شيخ " شاكر"، مطبعة المدني، القاهرة، جدة ، ١٩٩١م.

٤. بناء الأسلوب في شعر الحداثة- التكوين البديعي ، د. محمد عبد المطلب، دار المعارف ط. ٢، ١٩٩٥م .

٥. بنية الشكل الروائي، د. حسن بحراوي، المركز الثقافي العربي، بيروت، ط. ١، ١٩٩٠م.

٦. بنية النص السردي، د. حميد لحمداني، المركز الثقافي العربي، ط. ١، ١٩٩١م.

٧. تاريخ التراث العربي، فؤاد سزكين، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، ١٩٩١م.

٨. تحصيل الأُنس لزائر القدس، ابن هشام الأنصاري، تحقيق: عيسى القدومي، وخالد نواصره، مركز بيت المقدس للدراسات التوثيقية، قبرص ، ٢٠١٠م .

٩. التراث السردي، د. محمد عبد الباسط عيد، مكتبة الآداب، القاهرة، ط.١، ٢٠١٥م.

١٠. تشظي الزمن في الرواية الحديثة، د. أمينة رشيد، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٩٨م.
١١. التفاعل في الأجناس الأدبية، بسمة عروس، مؤسسة الانتشار العربي، د. ت.
١٢. الجغرافية والرحلات عند العرب، د. نقولا زيادة، الشركة العالمية للكتاب، بيروت، ١٩٨٧م.
١٣. جمال الدين القاسمي". أحد علماء الإصلاح في العصر الحديث في الشام، د. نزار أباظة، دار القلم ، دمشق ، ط. ١٩٩٧م.
١٤. جماليات المكان، غاستون باشلار، ترجمة: غالب هلسا، المؤسسة الجامعية للنشر والتوزيع ، بيروت ، ط .٢، ١٩٨٤م .
١٥. حلية البشر في تاريخ القرن الثالث عشر، عبد الرزاق البيطار، (ت ١٣٣٥ه)، دار صادر بيروت، ط. ٢، ١٩٩٣م .
١٦. خطاب الحكاية. بحث في المنهج، جيرار جنيت، المجلس الأعلى للثقافة، ط. ٢، ١٩٩٧م.
١٧. خمسون مفكراً أساسيًا معاصراً من البنيوية إلى ما بعد الحداثة، جون ليشته، ترجمة: فاتن البستاني، المنظمة العربية للترجمة، بيروت، ط١، ٢٠٠٨م .
١٨. دينامية النص. تنظير وإنجاز، د. محمد مفتاح، المركز الثقافي العربي، ١٩٩٠م.
١٩. الراوي والنص القصصي، د. عبد الرحيم الكردي، مكتبة الآداب– القاهرة، ط.١، ٢٠٠٦م .
٢٠. الرحلات، د. شوقي ضيف، دار المعارف، ط. ٤، ١٩٨٧م.
٢١. الرحلة في الأدب العربي حتى نهاية القرن الرابع الهجري، د. ناصر عبد الرازق الموافي، دار النشر للجامعات المصرية – مكتبة الوفاء ، ط. ١، ١٩٩٥م .
٢٢. الرحلة في الأدب العربي، د. شعيب حَليفي، الهيئة العامة لقصور الثقافة، أبريل، ٢٠٠٢م.

٢٣. الرواية والمكان، يا سين النصير، وزارة الثقافة والإعلام ، العراق ، ١٩٨٦م .
٢٤. السيميائيات، بيير جيرو، ترجمة د. منذر عياشي، دار نينوى- دمشق ، ط. ١، ٢٠١٦م.
٢٥. شرف الأسباط، جمال الدين القاسمي، مطبعة الترقي، دمشق، ط. ١، ١٣٣١ه.
٢٦. الشعر والشعراء، لابن قتيبة، تحقيق: أحمد محمد شاكر، دار المعارف، القاهرة، ط٢، ١٩٥٨م.
٢٧. شعرية الفضاء السردي، د. حسن نجمي، المركز الثقافي العربي، ط. ١، ٢٠٠٠م.
٢٨. الشكل والخطاب. مدخل لتحليل ظاهراتي، محمد الماكري، المركز الثقافي العربي، ط. ١. ١٩٩١م.
٢٩. الصورة الفنية في التراث النقدي والبلاغي عند العرب، د. جابر عصفور، المركز الثقافي العربي، ط. ٣، ١٩٩٢م.
٣٠. عتبات النص البنية والدلالة، عبد الفتاح الحجمري، شركة الرابطة، الدار البيضاء، ط. ١، ١٩٩٦م.
٣١. علم الأسلوب. مبادئه وإجراءاته، د. صلاح فضل، دار الشروق، ط.١، ١٩٩٨م.
٣٢. علم النص، جوليا كريستيفا، ترجمة: فريد الزاهي، دار توبقال للنشر، ط٢، ١٩٩٧م.
٣٣. علم لغة النص. المفاهيم والاتجاهات، د. سعيد حسن بحيري، الشركة المصرية العالمية للنشر- لونجمان، ط. ١، ١٩٩٧م.
٣٤. العنوان وسميوطيقا الاتصال الأدبي، د. محمد فكري الجزار، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٩٨م .
٣٥. في نظرية الرواية .. بحوث في تقنيات السرد، د. عبد الملك مرتاض، عالم المعرفة، ديسمبر، ١٩٩٨م .
٣٦. قال الراوي، د. سعيد يقطين، المركز الثقافي العربي، بيروت، ط.١، ١٩٩٧م .

٣٧. قاموس المصطلحات اللغوية والأدبية، إميل يعقوب وآخرون، دار العلم للملايين، ط. ١، ١٩٨٧م.
٣٨. قاموس مصطلحات النقد الأدبي المعاصر، د. سمير حجازي، دار الآفاق العربية، ط. ١، ٢٠٠١م .
٣٩. المثل السائر، ابن الأثير، تحقيق: د. أحمد الحُوفي، د. بدوي طَبانة، دار نهضة مصر، ط. ١، ١٩٦٠.
٤٠. مدخل لجامع النص"، جيرار جينيت، ترجمة: عبد الرحمن أيوب، دار الشئون الثقافية العامة، بغداد – دار توبقال للنشر، د. ت.
٤١. جماليات المكان"، مجموعة من الباحثين، دار قرطبة، المغرب، ط. ٢، ١٩٨٨م.
٤٢. معجم البلدان، ياقوت الحموي، دار صادر، بيروت، ط. ٢، ١٩٩٥م .
٤٣. معجم السرديات، محمد القاضي وآخرون، الرابطة الدولية للناشرين المستقلين، ط. ١، ٢٠١٠م
٤٤. معجم المصطلحات الأدبية المعاصرة، د. سعيد علوش، دار الكتاب اللبناني، بيروت، ط. ١، ١٩٨٥م.
٤٥. معجم المؤلفين، عمر رضا كحالة، دار إحياء التراث العربي بيروت.
٤٦. موسوعة كشَّاف مصطلحات الفنون والعلوم، للتَهانوَي، مكتبة لبنان ناشرون ، ط.١، ١٩٩٦م.
٤٧. ميخائيل باختين، لترفيتان تودروف، جدة، ترجمة: فخري صالح، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ط. ٢، ١٩٩٦م.

خامسًا: المجلات والدوريات

١. رحلة جمال الدين القاسمي .. القدس أواخر العصر العثماني، للأستاذ محمد الأرناؤوط ، جريدة العربي الجديد(٧- ١١- ٢٠٢٣م).
٢. سباق العقبان والنسور- تحليل سيميائي، عطية العمري، مجلة علامات، عدد٢٩، أبريل، ٢٠٠٨م.

٣. السيموطيقا والعنونة، د. جميل حمداوي، مجلة: عالَم الفكر، عدد: ٣، يناير، ١٩٩٧م.
٤. شعرية الفضاء في رواية "حكايات حارتنا"، د. مصطفى الضبع، مجلة فصول، عدد: ١٠١، خريف ٢٠٠٧م.
٥. الفضاء الجغرافي والفضاء النصي في رواية "شرق المتوسط"، لـــــــ"عبد الرحمن منيف"، أ. وفاء غالية، مجلة آفاق علمية، المركز الجامعي لتامنغست، الجزائر، عدد: ١٢، ديسمبر، ٢٠١٦م.
٦. القصدية في النص الأدبي، مجموعة باحثين، مجلة الرواق، جامعة لندن المفتوحة، عدد١، ٢٠١٥م .
٧. القهوة في دمشق من خلال رسالة الشيخ جمال الدين القاسمي الدمشقي" للدكتور" محمد خير البقاعي"، مجلة التراث العربي– دمشق، عدد: ١٠٩، سنة: ١٤٢٩هـــــ– ٢٠٠٨م .
٨. منهج التحليل الأسلوبي وإشكالية التطبيق، د: أحمد بخضر، أ. علي زواري أحمد، بمجلة علوم اللغة العربية وآدابها، جامعة الوادي، الجزائر، عدد ١١، ٢٠١٧م
٩. النص الموازي للرواية.. استراتيجية العنوان، شعيب حليفي، مجلة الكرمل، فلسطين، عدد ٤٦، أكتوبر – ١٩٩٢م.

سادسًا : المواقع الإلكترونية

١– الموقع الإلكتروني لأرشيف المتحف الفلسطيني الرقمي، رابط:
https://palarchive.org/
٢– موقع ويكبيديا الموسوعة الحرة. رابط: https://ar.wikipedia.org/